

عبد الرحمن مجيد الربيعي

القمر والاسوار



عبد الرحمن مجيد الربيعي

للَقَمَرُ وَالْأَسْوَارُ

رواية

عبد الرحمن مجيد الربيعي

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَهُوَ الْغَنِيُّ
وَأَنْتَ مُقَرَّبٌ

-السَّالِكُ بْنُ السَّلَكَةِ السَّاعِدِيُّ-

القسم الأول

إطلاقة أولى

بدأ حميد بفتح حزامه الجلدي العريض ذي الخنجر المفضض ،
ثم ألقاه على سريريه المصنوع من جريد النخل • ورفع العقال
واليشماغ من فوق رأسه ورماهما فوق السرير أيضا ، تنفس
بارتياح بعد ذلك وهو يجلس على الارض فوق سجادة صوفية بهت
بريق ألوانها من الوسخ والقدم •

ودلفت حسنة وراءه الى الغرفة وهي تسأله :

- أ تريد فطورك ؟

هز رأسه بالايجاب ثم اتكأ على الحائط ، فانهال التراب
متساقطا ، ولكن الحصرة المعلقة على الحائط منعه من التساقط فوق
السجادة •

(*) اعدت هذه الرواية السينما العراقية في فيلم بعنوان (الاسوار)
سيناريو صبري موسى واخراج محمد شكري جميل •

سألها بأجهد :

— ماذا عندك

— بيضة واحدة • وجدتها في القن قبل قليل •

— احتفظي بها للاولاد ، هات لي شايا وخبزاً فقط •

فأوضحت له حسنة قائلة :

— لقد أفطر الاولاد زبداً وخرجوا ، عباس وكامل الى المدرسة

ونجّية الى السوق •

ثم اضافت :

— انت سهران ومتعب وبجاجة الى ما يقيم أودك •

اخذ يمسد يده على لحيته الكثة وهو يقول :

— حسناً ، ولكن بسرعة •

وسحبت حسنة جسدها الصغير وخرجت متجهة الى السقيفة

الواقعة في زاوية من الدار حيث يخزن الحطب المكون من سعف

النخيل وفضلات الحيوانات • استخرجت الطباخ النفطي واشعلته •

ثم بدأت بقلي البيضة •

كانت حسنة سمراء وناعمة • جف لحمها ولم يبق من جسدها

غير هيكل صغير شاحب • حدث لها ذلك بعد ان اصيبت بنزلة صدرية

منذ سنوات وكانت في رحلة الى قرينتها « أبو هاون » الواقعة في

منتصف الطريق بين الشطرة والرفاعي وعلى الضفة اليسرى من نهر

الغراف • وقد مكثت في مستشفى المدينة ثلاثة أسابيع خرجت بعدها

وقد انتزع المرض منها كل علامات الشباب والبهاء وتركها هكذا

ضامرة لا تقوى على اداء عمل •

وضعت الطعام أمام زوجها ، فحمل الصحن وسكب البيضة
المقلية في رغيف الخبز ثم لفه واخذ يقضمه بسرعة واشتهاء .



تقع دار حميد في زقاق يتفرع من الشارع العريض الممتد بين
المستشفى ومنطقة «الروف» (*) حيث المقابر وضريح « المجاهيل » الذي
يرتاده سكان المدينة والقرى المحيطة بها ويقدمون له النذور .

وكان الزقاق يعمر بالبيوت الطينية الواطئة . وجل سكانه من
المهاجرين الذين تركوا حقولهم وقراهم وانغمسوا في عالم المدينة
حيث عملوا فراشين وجنودا ورجال شرطة وحراسا ليلين وخبيا في
البيوت والمستشفيات وعمالا في البناء الى آخر هذه الحرف الصغيرة
التي لا يقدم عليها سكان المدينة الاصليون .

في دار حميد غرفة واحدة ، جدرانها الطينية غطيت من الاسفل
بحصران من خوص النخيل حتى تمنع التراب من التساقط ، وقد
سقت بجذوع النخيل المغطاة بالبوارى (**).

(*) هكذا يسمي سكان الناصرية السد الترابي الذي يمنع مياه هور
« ابو جداحة » من اجتياح المدينة .

(**) البوارى حصران تصنع من القصب وتستعمل كأفرشة عادة .

ويستقر في كل ركن من الغرفة سرير من جريد النخل ، الاول
ثلاب والام ، أما الثاني فلباس وكامل ، وتام نجية في وسط الغرفة
اذ لا مكان لسرير ثالث فيها .

وفي مواجهة الباب وضعت منضدة لها جاروران كبيران دست
فيهما بعض الحلى الفضية والملابس النظيفة . وفوقها وضدت بعض
السجاجيد الجنوبية المزركشة التي لا تستعمل الا في حالات قدوم
الضيوف .

أما جدران الغرفة فقد زينث بصور للحسين والعباس وهما
يقارعان خصومهما وعلى رأسهم الشمر بن ذي الجوشن . كما ان
هناك صورا اخرى لبعض المرافد المقدسة الصقت على الحصران
بالمجيين .

وكان حميد يمنع أولاده من تعليق أية صورة لامرأة من تلك
التي تحفل بها المجلات الملونة التي يلف بها الشاي والسكر والملح
وغيرها من اللوازم التي يتعاونها من دكان حمد الواقع في رأس
الزقاق .

وفي باحة البيت غرس حميد نخلة ، وأحاطها بحوض صخر
ليتسنى له سقيها ، ويحفظها من عبث الدجاجات اللواتي يتشرن في
البيت سباح من الاسلاك .

– أتريد الشاي؟

أجابها سرعا .

– ماذا تتظنين؟

وبعد ان شرب ثلاثة اقداح متالية تجنأ ثم ربت على صدره
علامة الرضى ، ونهض باتجاه المضلة التي كانت عبارة عن صفيحة
ذات صنوبر ، وحوضها حفرة صغيرة ترش في باحة البيت كلما
امتلأت بالماء .

واغتسل مسرعا ثم عاد الى الغرفة ثانية . وقال لزوجته بصوت
آمر :

- سأنام بعض الوقت قبل ان يعود عباس وكامل من المدرسة .
- وتمنت حسنة .
- أمرك .
- وكانت تجمع الاواني التي تناول فطوره فيها لتخرج بها .
- أين نجية ؟
- اخبرتك انها ذهبت الى السوق
- وحدها ؟
- لا ، مع غالية .
- وتمتم ببطء :
- من حسن الحظ ان لك هذه البنت .
- انها يدي اليمنى يا أبا عباس .
- وان تزوجت فلن يبقى لنا من يتتى بنا وانت في مثل هذه
الحال .

وعلقت بألم :

- الله كريم . انه لا يقطع بعباده وستحسن صحتي .

واستلقى حميد على سريره • أما حسنة فقد حملت الاواني خارج الغرفة ثم عادت وجلست على حافة السرير وهي تمسك بمروحة يدوية مصنوعة من سعف النخيل وبدأت تنس الذباب عن وجهه حتى غفا وغاس في نومة عميقة •

أخذت حزامه الملقى بجانبه وانتزعت منه الخنجر واحتفظت به في صندوق خشبي وضع تحت السرير ، ثم علقت الحزام بمسماز مثبت في الحائط •

* * *

خرجت حسنة لتتفقد شؤون بيتها • وبدأت بوعاء العجين اذ تحبسته بأطراف اصابعها بعد ان ازاحت عنه الدثار السميك • وعندما وجدته على وشك الاختمار عجنته ثانية بساعديها الهزيلين وهي تلمت وتسمل اثناء العمل وكأنها تزحزح صخرة تفوقها حجما • وبعد ان أنهت عملها دثرت العجين ثانية واتجهت الى التنور ووضعت فيه حزمة من الحطب واشعلته فهب اللهب عاليا وبلسان طويل له ذؤابات من الدخان • تركته واشغلت بتنظيف باحة البيت من فضلات الدجاج والتسر المتساقط من عذوق النخلة •

لقد اعتادت حسنة هذه الاعمال اليومية • وفي فترة شبابها الاولى كانت تؤديها بحماس وقوة حيث كانت يومذاك عروسا ناعمة ريانة الوجه ، حملها حميد من القرية وجاء بها الى الناصرية ليتنقل بين المهن الصغيرة حتى انتهى به المطاف حارسا ليلياً يجوب أزقة المدينة وشوارعها المظلمة ليطرد عنها اللصوص الزاحفين من القرى القريبة •

كان ذلك منذ عشرين عاما • ويومها لم تكن الناصرية الا ثكنة
كبيرة ومسجدا بناهما ناصر الاشقر لجنوده واتباعه لصد غزوات
العشائر المنددة •

* * *

سمعت حسنة صوت طرقات على الباب فألقت بالمكنسة وذهبت
لتفتحه وطلعتها وجه زكية حيث جبتها وهي تدلف مسرعة داخل
البيت لا هتة من صفيحة الماء التي كانت تحملها على رأسها •

- اين اضعه؟

فردت عليها حسنة :

- في الكوز •

ثم أضافت :

- الله يساعدك •

وبخفة حملت زكية صفيحة الماء من فوق رأسها وسكبتها في
الكوز • وبعد ان انتهت من ذلك وضعت الصفيحة على الارض
وجلست لتسترد انفاسها •

كانت زكية أرملة مات زوجها بالسل وبقيت وحيدة لا أحد
يعيها فأخذت تعمل بحمل صفائح الماء من النهر الى بيوت الزقاق
لقاء اجر زهيد يعينها على دفع ايجار الترفة من بيت غالية وشراء
أقراص الخبز والخضروات احيانا •

- هل انت جائعة؟

وقبل ان تستمع لجوابها دخلت حسنة الى الترفة وجلبت حفنة
من التمر ورغيفا من الخبز وضمتها أمامها وهي تضيف :

- كلي • لابد وانك جائزة •

وتمتت زكية :

- الله يطيل عمرك يا أم عباس ويخرجك من شدتك ومريضك •

- الله يسمع منك •

- دعاء غريب لغريب •

وعندما انتهت من تناول طعامها • قالت لها حسنة :

- هات صفيحتين بعد • أبو عباس يريد ان يفسل جلده •

- أمرك • ولكن بعد ان انتهى من بيت الشيخ علي •

واضافت حسنة وكأنها تذكرت شيئاً :

- يقول الشيخ علي ان الحكومة ستأينا بحنفيات الماء • كل

بيت له حنفية •

واجابت زكية بحرقة :

- وسينقطع رزقي يومذاك •

ثم ضحكت وهي تردف :

- لكن عين الله لا تنام وهي ترعى المقطوعين امثالي •

وتوقفنا عن مواصلة الحديث عند دخول نجية وهي تحصل

مشترياتهما في قفة فوق رأسها •

وكانت نجية قصيرة وسراء مثل أمها الا انها كانت ممثلة تفور

بالشباب والفتنة •

وبعد ان جيتهما دلفت الى الغرفة حيث وضعت قفتها وخرجت
من جديد وهي تتمتم :

• - الجو نار هذا اليوم •

ثم اضافت :

• - درت كل السوق لأجد سمكة مناسبة • أعطيت ربع دينار
لواحدة بطول الذراع فلم يقبل السمك •

ورددت زكية :

• - الله يساعد الفقراء •

• ثم استأذنت بالخروج •

قالت حسنة :

• - ماما نجية ، المعجين على وشك ان يتلف ، اخبريه قبل كل

شيء •

• - حاضر •

• - وانا سأدخل لأنش الذباب عن وجه ابيك •

قال عباس :

- أخذت خمسا وتسمين بالانكليزي •

أطلق كلمته وهو يلوك قطعة من الخبز الحار في فمه بتلذذ
بعد أن غمسها في الادم • وكان الزهو يرتسم على وجهه الاسمر
المائل الى الامتلاء حيث تفوح ملامحه بالرجولة التي تجعله يبدو
أكبر من عمره السني يدنو من الأربعة عشر • يتأمله
حميد بفرح ثم يلتفت الى حسنة هامسا :

- لا أصدق بانهما سيكبران ويعصبجان موظفين وأرتاح من

الحراسة والسهر •

فاتته كامل الى كلام والده وامنيته وقال :

- سأدرس حتى أنجح وأُستري لأمي الدواء •

وكان كامل اصغر من اخيه بعام • وكانت حسنة تعلمن :

- ما ان اغتسلت من الاربعين حتى حملت بكامل أما نجية
فقد انقطعت عن الانجاب بعد ولادتها ثلاث سنوات تقريبا حيث
اشد علي المرض • وقد قصدت مرقد الحسين والعباس والكاظميين
ونذرت النذور لهم وللمجاهيل وسيد خضير وفوادة أم هانم (*)
وكتب لي الشيخ علي الله يطيل عمره عشرات الادعية ولكن لا فائدة ،
له بها ارادة . جل جلاله ، ثم حملت بعباس ، الله لم يكسر بخاطري .
كان عباس يشبه والده تقريبا ، نفس السمرة الداكنة والانف
الطويل ، ونفس الجبين الواسع والوجه العريض • أما كامل فوجهه
يميل الى الطول وبشرته أفتح ، كما انه مميز بحنك طويل كان عباس
كثيرا ما يثيره عندما يجمل من طوله مادة للتندر •

أما نجية فكانت تمضغ طعامها بصمت دون ان تجسد الرغبة
لمشاركتهم الحديث فقد كانت متعبة لكثرة الاعمال التي ادتها ، ولكنها
سعيدة بوجودها في هذه العائلة الهادئة التي تعيش في بحبوحة ورضى
قياساً الى العوائل الاخرى التي يضمها الزقاق • فقد كانت الجبوب
والسمن تأتيها من أبناء أخ حميد الذين لم يلحقوا بعمهم في المدينة
ولم يولدوا في قريتهم مع اولادهم ومواشيهم •

نطق كامل :

(*) اسماء اضرحة ومزارات قريبة من الناصرية •

- يا باء ، اريد ان اخبرك عن عباس •

وهب عباس قائلا :

- بماذا تخبره ؟

- لقد تشاجر مع احد الطلاب وضربه على رأسه بالمسطرة

فأرسل عليه المدير ووبخه •

واتبه حميد لما قاله كامل حيث سأل عباس :

- أصحيح هذا ؟

فمض عباس على شفقه وهو يتأمل اخاه متوعدا • لكن الام

بادرته معاتبه :

- كم مرة اوصيناك بأن لا تشاجر مع الطلاب ؟

- لقد شتمني ومزق دفتري •

وهنا تدخل الاب مرددا بغضب :

- في مثل هذه الحالة اخبر المعلم بالموضوع •

- المعلم لا ياقبه لان والده غني

وكان رد عباس قاطعا رغم كل ما فيه من افتعال • صمت الوالد

مداريا انفعاله • وقطع تساؤلاته مع ابنه • وعادت يده لتلم رغيف

الخبز •

قالت الام :

- بعد سنة او سنتين ستوظفان انت واخوك وتصبح اغنياء ،

الاغنياء لم ينزلوا من بطون امهاتهم وهم كذلك ، دع والدك يتحدثك

عن اغنياء المدينة وماذا كانوا قبل ان يفتنوا ، انه يرفههم واحدا

واحدًا • من كان يبيع الجلود ، ومن كان مهربًا ، ومن ومن • نحن
ناس أشرف يا ولدي ، والله أعلم بحالنا ، نسوم ومضمان ونؤدي
الصلاة في أوقاتها •

وردد عباس بنضب :

- ولكن لماذا يخبركم بذلك ؟ هل هو جاسوس علي ؟

- أخبرتهم حتى لا تتشاجر بعد •

وكرر عباس على أسنانه وهو يعلن متوعدا :

- سأضرب من يضربني حتى لو كان ابن مدير الشرطة ،

أفهمت ؟ لا أرضى ان يهينني أحد •

وكان حميد يراقب ثورة ابنه ففرح لها في قلبه ، ولكنه لم يفصح

عن فرحته بل واصل موقفه الحازم ، ربت على كتف ابنه قائلا :

- ليس هناك احد من أهلك يرتضى الاهانة • ولكن يا ولدي لا

تفعل • تصرف بهدوء • نحن ناس بسطاء وعلى قدر حالنا ، ماذا نفعل

لو طردوك من المدرسة ؟

ثم قبل ابنه على خده • وعادوا الى طعامهم • وملأت الام طاسة

باللبن • قدمتها لعباس • فتناولها منها ثم كرعها دفعة واحدة ، مما

: جعل الام تردد :

- هنيئا •

بعد ذلك نهض معلنا •

- سأقرأ قليلا ثم أخرج لالعب مع أصدقائي •

- وانا سأكتب ، لدي موضوع في الانشاء •

* * *

وجمعت نجية الصحون الفارغة ، ثم رفعت سفرة الطعام
المصنوعة من خوص النخيل وخرجت • انذاك التفتت حسنة الى
زوجها هامة :

- في رأيي يا ابا عباس ان نعطيها لام هاتف • ان هاتف شاب
طيب وبده مهنة ، واجرته دينار لكل يوم ، والبناء له مستقبل ،
والناصرية تتوسع يوما بعد يوم •

وردد حميد بحيرة :

- لا أدري ماذا أقول ، ولكن اخواني وابناء عشيرتي في أبي
هاون لا يرتضون بأعطائها لشخص غريب ، ولديهم اولاد شبان لا
ينقصهم شيء • كيف أقنعهم ؟

أجابته حسنة بصوتها المتعب المريض :

- اقنعهم بأن البنت نشأت في المدينة ، وحرام ان تزوج
وتعيش في القرى ، انها حياة قاسية لم تعدها من قبل وللحياة في
المدينة طابع أسهل بكثير •

وعاد صوت حميد الى التردد بنفس حيرته :

- ولكنهم لا يفهمون هذا التبرير ولا يقتنعون به مطلقا ، واذا
ما زوجها دون علمهم ستكون مصيبة •

- ابن عمك الشيخ علي مذك ، ويؤيد زواجها من هاتف ،
دعه يسافر الى القرية ويعرض عليهم الموضوع وسيقنعهم برأينا • ان
كلته مسموعة بينهم ولا أحد يمترض عليها •

وصفن حميد مفكرا، ثم قال وكأنه تذكر شيئا :

- وهل تعرفين كم سيدفع لها؟

واستكرت حسنة سؤاله فقالت :

- وهل هي بقرة؟

- ليس هذا ما أقصده ، ولكن هذه مسألة حق .

فكرت حسنة قليلا ثم نطقت :

- ربما سيدفع خمسين أو أكثر .

وعلق يهدوء :

- الله يعلم بأنني لا طمع لي في مهرها . حرام علي لبن أُمي

ان فكرت بذلك .

- انصحك بمفاتحة الشيخ علي برأيي .

وهنا نهض حميد وهو يقول :

- خير البر عاجله . سأذهب اليه الان .

* * *

تقع دار الشيخ علي في مواجهة دار حميد ولا تفصل بينهما
الا بضعة خطوات هي عرض الزقاق . وهو اول رجل هاجر من قريته لينضم الى
المدينة ، هجرها هربا من زوجة خاله التي تبنته بعد وفاة والديه
بالجدري ، وقد عاش في كنفها ذليلا جائعا ، لا تطعمه الا اللبن وخبز
الشعير ، ثم جاءت سنوات الجوع التي يسميها الناس هناك بسنوات
« لوعة » فماتت الابقار وجفت الارض ، وقد تمكن ذات يوم مسن
الاهتداء الى وعاء للسمن كانت زوجة خاله تحتفظ به فشربه

وهرب . وكم حاولوا العثور عليه ولكنهم عجزوا ، وتناقلوا الحكايات عن اسباب غيابه . قال البعض انه هرب مع النجر ، وقال آخرون انه غرق في النهر ، وثالث تصور ان الذئب أكلته . عمل خادما في فندق ثم جاءه من يخبره ان العمل في البصرة مريح اكثر فذهب الى هناك وعمل مع سماك في شط العرب ، وبعد ذلك عبر الى الاحواز واستقر هناك مرافقا لاحد رجال الدين ، وتعلم منه القراءة والكتابة وقراءة الطالع وكتابة الادعية . كان ذلك في عشرينات هذا القرن . وتزوج من ايرانية ثم طلقها بعد ان اكتشف انها عاقرة ، وطاف في كل مدن ايران . . عبادان ، طهران ، كرمنشاه ، اصفهان ، وزار مرقد الرضا عشرات المرات ، ولكنه عاد الى وطنه بعد اعوام ليطفىء الحنين الذي ظل يطارده اينما حل . وكانت الصورة عن اهله غائصة . زوجة الخال التي تسومه العذاب ، والاقارب الذين كانت تشغلهم همومهم عنه . والجوع الذي سحقه ولكنه عاد ، وعمل قارئا للبخت في شارع الهواء يفرش حصيرة على الرصيف في المنطقة المجاورة للسوق ، ويستقبل الزبائن ، وكانت النساء عادة يضعن البراقع على وجوههن ويتلفعن بعباءاتهن السوداء حتى لا يعرفهن العابرون فداع صيته ، وبدأ الناس يتحدثون عن مهارته وقدرته على كشف الطالع ، فوسع دائرة عمله واستأجر دكانا للالتقاء بزبائنه .

وذات يوم سافر الى قرينته والتي ظل اسمها عالقا بباله وهناك قدم نفسه الى افرادها . فوجد الشيوخ قد ماتوا بمن فيهم زوجته خاله . وكبر الاولاد وشاخ البعض منهم مبكرا . ولم يصدقوا ان

هذا الرجل الوقور ذا الثياب النظيفة واللحية السوداء الكثة هو علي بن هلال .

وسأل عن أبناء عمه فأخبروه عن مآلهم . ومن ثم توقفوا عند حميد الذي هجر القرية هو الآخر وانضم الى المدينة حيث عمل حارسا فيها . وعندما رجع الشيخ علي الى المدينة لم يجد صعوبة في العثور عليه . فاشترى البيت المقابل له ، ومن ثم تزوج من خيرية اخته، وكانت أرملة قتل زوجها بعد شجار حول ساقية للماء وكانت مازالت شابة فأنجبت له ولدا وبنتا ، عزيز في السادسة عشرة من عمره وكوثر في الثانية عشرة .

* * *

طرق الباب ، ففتحته كوثر :

- أهلاً خالي ، تفضل .

- أبوك هنا ؟

- نعم

فدخل حميد واستقبله ابن عمه مرحبا :

- زارتنا البركة .

ثم أدرك بحدسه ان ابن عمه قد جاءه بأمر . وبعد ان شربا

الشاي أخبره حميد بالموضوع .

واعلن الشيخ علي :

- وانا رأيي من رأيك ، وغدا من الصباح الباكر سأسافر

الى ابي هاون . والمكتوب يعجري .

وصل الشيخ علي الى قريته مجهدا • كانت تبعد مسافة طويلة
عن المدينة ، وكان عليه ان يستقل سيارة خشبية كبيرة زهاء الثلاث
ساعات على طريق ترابي حتى يصلها • وكانت السيارة عادة مكتظة
بالقرويين وهم في طريقهم الى قريتهم ، وحتى سطحها كان مغطى
بالاحمال واقفاص الخضروات والسلال والمشتريات التي يعودون بها
من المدينة بعد ان يبيعوا - ات حقولهم فيها •

وبعد أن شرح السبب الذي جاء من أجله قال عبد ابن أخ

حميد :

- ولم نزوجها لشخص غريب ؟ هل خلت قبيلتنا من الرجال ؟
ابناء حمود الاربعة لم يتزوجوا بعد • واثنان من أبناء عيسى لم
يتزوجا ، وأحد أبناء جاسم كذلك ، فلماذا تعطونها لرجل غريب ؟

واطرق الشيخ علي مفكرا بعض الوقت ماسحاً بأنامله على شعيرات لحيته الكثية ، وطال صمته وهو يبحث عن الرد المناسب الذي يستطيع به اقناع عبد واخوته .

وضع يده على صدره ثم سحب نفسا عميقا من سيكارتته التي كان قد لفها بيديه . ونطق بهدوء بالغ :

- لست غريبا عنكم فأنا عمكم أيضا ، واعرف كل شيء هنا ، ان عددا كثيرا من ابائنا لم يتزوجوا بعد ، ولكن بالمقابل هناك عدد كبير من بناتنا لم يتزوجن كذلك ، فلماذا تقارن المسألة بالنسبة للاولاد فقط ؟

ثم اعتدل في جلسته وواصل القول :

- اسمع يا عبد كنت اود ان اخبركم بمسألة واحدة وارجو ان تنظروا اليها نظرة معقولة فالدنيا تغيرت يا ابن أخي . انتم تعلمون ان نجية ولدت في المدينة وعاشت فيها ، وتعلمون ان الحياة في المدينة رغم كل شيء تختلف عنها هنا . انتم تريدون زوجة تجيد طحن الحنطة وحلب الابقار ورعاية الاغنام ، ولكن نجية لا تجيد أي شيء من هنا ، فان من يتزوجها منكم ستكون كالعالة عليه ، والزوجة التي ولدت هنا وتربت وعاشت وعرفت كل شيء عن القرية هي التي تفيدكم .

وهنا قال عبد بعد ان حسن من وضع عقاله الشطري(*) فوق رأسه :- انا معك في هذا ، ولكن كيف نقتنعهم ؟

ثم اضال بلهجة اخفت :

(*) نسبة الى مدينة الشطرة القريبة من الناصرية والعقل المصنوعة فيها مشهورة بجودتها .

- على اية حال ان زيارتك عزيزة علينا ، وليس هناك مسن مانع بالنسبة لي ، فأنا متزوج والحمدلله ولا أفكر بزوجة اخرى •
وهنا ضحك الشيخ علي من قلبه وهو يقول :
- لست مثل عمك •

واشار بيده الى صدره ، فضحك عبد وعقب :

- ولا مثل والدي الله يرحمه •

وبعد ان ارتويا من الضحك اتابيت حنجرة الشيخ علي موجة من السعال الخفيف ، وبعد ان مرت تنفس بارتياح وهو يقول :

- الله يلعن السيجائر •

- نحرق فلوسنا وصدورنا •

- بلاء ، بلاء •

وامتلاً صدر الشيخ علي بالفرح وهو يقرأ القبول في وجه عبد والاعتناع بما قاله ، فهو يعرف جيداً ان كلمته نافذة المفعول ، وعلى الرغم من صغر سنه فهو صاحب الكلمة المسموعة في القرية •
واضاف الشيخ علي حاسماً الموضوع الذي جاء من أجله :

سما اريد ان اقله ايضا ، اذا كان لاحدكم رغبة في البنت أرسلوا لنا الخبر خلال اسبوع والا فنحن في حل •

ومرت فترة صمت أخرى كان الشيخ علي يجذب أنفاس سيجارته بشهية وهو متكئ على الجدار وذراعه مسندة الى الوسادة الصوفية ، بينما تسرح نظراته في الفضاء الاخضر المنطرح أمامه وعلى مقربة منهما ربح كلب أحمر كبير الحجم ، بسط يديه أمامه وبدا وكأنه يتنصت لما يقولانه •

وفي الساحة تبخر الدجاج لالتقاط الحب المتساقط من
السدائن ،(*) وجلس بعض الاطفال في ظل المضيف ، لاهين
بالكماب متصايحين بين وقت وآخر .

* * *

كان المساء يقترب ، وعودة الرجال من حقولهم قريبة ،
وسرعان ما تمتلئ القرية بالحياة ، خوار الجبول ، وثغاء الأغنام ،
وصياح النسوة وهن يحلبن ، وتصاعد السنة النيران من التناير
تهيئة لخبز المساء .

كان الصباح والمساء اكثر الاوقات سخبا وحياة في القرية ،
الاول بداية الرحلة الى الحقول والمراعي والثاني العودة منهما
بالجنني والمواشي المملوءة الاجواف بعد تعب طويل وعناق مع الارض
والخضرة وزرقة السماء وسماع اشهى الالحان وهي تبت من
شبابات الرعاة المتوزعين في السهول الفسيحة لا يحميهم من الحر
او المطر الا اخصاص صغيرة يصنمونها من القصب وسعف النخيل .
قال عبد :

لا تنس يا عم بانني اثق فيك ثقة كبيرة ، وانا موقن بانك
تسمع كلمة الله .

(*) اسطوانات كبيرة من الطين يبلغ ارتفاعها حوالي المتر تستعمل
لخزن الحبوب في بيوت الفلاحين .

- ولكن مع هذا يا عبد اذا ارادها أحد منكم فلا حيلة لنا في الامر .
- لم أسمع بأحد يريد لها لحد الان . وفوق هذا المسألة قسمة ونصيب .



وعاد الشيخ علي الى المدينة مبكرا في اليوم التالي . وكان حميد ينتظر عودته ، وعندما عرف بها دخل عليه في غرفته ، فرآه غارقا في تلاوة آيات من القرآن بصوته المهدج الوقور . هذه الغرفة مهيبة من الطابوق على خلاف غرف البيت الاخرى المبنية من الطين والتي لا يدخلها أحد الا زوجته خيرية لمرتين في الاسبوع من اجل تنظيفها . وقد وزعت فيها الكراسي الخيزرانية بينما فرشت ارضيتها بالسجاد الجنوبي الجميل . وعلى جدارها المواجه للباب علق مسبحة طويلة جدا تحتوي على الاف الحبات السوداء الصغيرة وكانت معلقة على هيئة ملتوية تجعلها أشبه بحية صحراوية ملساء . وفي زاوية منها وضعت منضدة كتابة صفت عليها كتب دينية صفراء ، وقناني الزعفران التي يستعملها في كتابة الادعية بدلا من الحبر . كما وضعت فوقها ثلاث مباحر نحاسية على هيئة قباب ثم مجموعة من المكعبات الحديدية الصغيرة نقشت فوقها كلمات واشارات مبهمه ترمى في طبق الصفيح اثناء قراءة الطالع .

هذه الغرفة هي العيادة التي يستقبل فيها الشيخ علي زبائنه حيث يدفعون له اجرا زهيدا يكتب لهم حجبا للخير والمجبة أو طرد

الاشرار ، أو ليقراً لهم طالهم وما سيؤولون اليه • والجميل في الامر ان الشيخ علي كان يثق بعمله هنا ويؤديه بقناعة تامة ، وكان يعتبره مساعدة للاخرين وثوابه أكبر بكثير من الدريهمات القليلة التي يتلقاها مقابله • وقد كرر مرارا أمام جلسائه ان مجرد كتابة اسم الله والائمة وبعض الادعية على ورق نظيف بماء الزعفران سيبرئ الانسان من كل مرض ويبعد عنه الشرور ، ولذلك اكرر من كتابة الآيات القرآنية بتشكيلات جميلة وعلقها في غرفته قبالة المسبحة •

وكان الشيخ علي يحظى باحترام نادر • وعندما يمر في الزقاق متمهلاً في مشيته ومنتماً باسماء الله يفسح العابرون له الطريق بمد ان يحيونه بأرق الكلمات •

ولم يضع الشيخ علي عمامة على رأسه كما يفعل رجال الدين ، بل كان يضع العقال والبشماغ ، ولكنه أطلق لحيته تيمناً بقول الرسول : اكرموا اللحي ، وكان أيضا ينظي بها آثار الجدري الذي اصابه في سنوات « لوعة » وقضى على والديه • وقد اكتسبه هذه اللحية هبة وسيمة تزيدها جاذبية قابليته الفذة في الحديث والتي تجعل جلوسه منصتا له بشغف مهما طال الحديث • وفي ليالي الصيف كانت باحة داره تضم العديد من رجال الزقاق حضروا ليستمعوا اليه وهو يحدثهم أحاديث غريبة ، عن البصرة وايران ، وعن المغرب والفرس ، والانس والجان ، كما يحدثهم عن السياسة والسياسيين والاستعمار والوطنية والانكليز والالمان ، فكانوا يصغون اليه باتباه طالين الاستزادة •

وقد قالت زكية الساقية ذات يوم :

- ان الله أرسل الشيخ علي الى زقاقنا ليطرد الشرور التي يجلبها لنا جبار شارب العرق الذي لا تمر عليه ليلة دون ان يأتي سكرانا فيضرب المسكينة غالية زوجته وتظل تصرخ حتى يسمعها كل سكان الزقاق .

وعندما انتهى قراءة القرآن أطبقه ثم قبله ووضع في مكانه .
والتفت الى ابن عمه بابتسامة مرجحة . بعدها بادره حميد بالسؤال :

- حمامة أم غراب ؟

فضحك الشيخ علي وهو يربت على كتفه مرددا :

- اطمن حمامة .

ثم أردف وضحكته تسع :

- ولكن ريشها لم ينبت بعد .

ولم يفهم حميد الدعابة في قول الشيخ علي . فرسم على وجهه بسمة حائرة متلكئة .

ثم نهض الشيخ علي ومد رأسه من باب الغرفة ناديا :

- خيرية ، أم عزيز .

وجاء صوتها :

- نعم .

- احضري الشاي ، بسرعة .

وجلس على الكرسي المجاور لحמיד • تأمل مسبحته الطويلة
وهي تفرم مساحة الجدار بادیء الامر • وعندما دخلت خيرية تناول
منها شايه ليبدأ بارتشافه • وبعد انتهى من ذلك انبس قائلاً :

- استطعت ان اقع عبدا • ولكن مع هذا علينا ان لاتعجل ، فربما
يريدنا احد ابناء عشيرتها وانذاك سندخل في مشاكل نحن في غنى
عنها •

- تعرف يا أبا عزيز بأنني لست متضايقا منها على الرغم من ان
البت عورة ومسؤولية ولا بد من تزويجها ، وهاتف شاب لا بأس به
ورزقه أمامه ، كما ان امها راغبة فيه •

تمتم الشيخ علي حاسما الموضوع :

- ومن فينا غير راغب ؟ !

* * *

وبعد ايام قرئت الفاتحة بمناسبة خطوبة نجية وهاتف ، وانتشر
الخبر في الزقاق ، واطلقت الزغاريد ، ثم جاءت أم هاتف بميموف
الذي يرتدي أزياء النساء ليرقص ويفني فأحيا حفلة رقصت فيها حتى
زكية الساقية وقد اعلنت في أوج انتشائها :

- نجية ابنتي وهاتف كذلك ، فلماذا لا أرقص ؟

وبعد أيام قليلة تم الزواج •

* * *

ينتمي هاتف لاحدى قبائل السماوة ، وقد جاء والده مهاجرا بعد ثورة العشرين التي اجتاحت منطقة الفرات الاوسط ضد الانكليز ، وكان الوالد صياد سمك يرمي شبكته القديمة في أعماق الفرات في منطقة « الموحية » لينتزع خيرات النهر .

وعندما دخل الناصرية كانت معه زوجته وابنته وولده الرضيع ، ولكنه مات ذات شتاء بعد ان انقلبت سفينه الصغيره وسط النهر ، وقد استطاع ان ينتزع جسده من النهر ويستقر عند الشاطئ ، ولكن برودة الماء والجو غرست في عظامه صليلا لم يمهلها الا أشهراً معدودة ، انفقها ممدداً في داره ، مقتاتا على الاجرة الضئيلة التي كانت تدفع لهاتف لقاء عمله في البناء .

وقد وجدت زكية الساقية في موته مناسبة لان تردد وهي تسوء بصفائح الماء :

- يموت أبو هاتف ويبقى جبار حيا . لك فيها ارادة يا خالق الجراد .

ثم تزوجت البنت من ابن خالتها وعادت الى السماوة ، أما هاتف فقد استمر في العمل ، وتحول من حمل القفف الكبيرة المألئ بالطين الى مناولة الطابوق للبناء حتى يرصفه في الجدران . وعندما أصبح في العشرين من عمره صار بناء ماهرا ساهم في تشييد عدد من الدور الجميلة في المدينة .

وكان هاتف ذا قامة طويلة ومفتولة ، له خطوات واثقة ، وشارباه كان يكسران من حدة النحافة في وجهه ، وله نظرات حادة

يرسلها الى الامام، وكان أيام الضنك التي مرت به هي التي تركت فيهما
هذا التحدي •

أما الام فكانت تقوم بدور الطيبة لسكان الزقاق ، فالطفل
الذي يصاب بالتهاب اللوزتين كانت تعالجه ، حيث تعفر سبابتها المبللة
بالرماد ، ومن ثم تفتح فم الطفل وتدسها فيه حتى تصل الى اللوزتين
المتورمتين وتبدأ بضغطهما ، وتكرر هذا العمل كل صباح لثلاثة
ايام متتالية حيث يشفى المريض بعدها حتما •

وهي أيضا تعرف الفصد والحجامة وتجيد الوخز بالابر ، حيث
تقوم بوخز الجسم المشنج وخزات متتالية وسريعة بأبرة الخياطة
وعلى عرض المسافة المشنجة حتى يتدفق الدم الفاسد وينزاح التشنج،
وكانت تفعل كل هذا بلا مقابل ، ولذا كسبت سمعة طيبة في الزقاق
والازقة الاخرى المجاورة ، وكانت الصباحات تحفل بنساء يحملن
ابناءهن على اكتافهن ليطرقن بابها •

ويوم اخبرها هاتف عن رغبته في الزواج من نجية فرحت
وقالت :

- نعم ما اخترت يا ولدي •

كان الزقاق نائما تقريبا ، وقد غطت بيوته في ظلمة دامية، وليس هناك من يجروُ على الخروج ، فقد انهدمت الحياة في المنطقة منذ ان حل الظلام ، وعبثا تقاوم الانوار الباهتة المتسربة من ذؤابات الفوانيس النفطية التي تنوس في باحات البيوت •

وكان حميد في راحة من الحراسة ، وقد تمدد على الحصيرة قرب زوجته المسككة بمروحة من سعف النخيل لتجلب له الهواء البارد • وكانت تبدو صغيرة وضامرة ، مرمية في جلستها ، كلماتها مغمسة باللهاث والسعال ، وعلى الرغم من رغبة حميد في النوم مع امرأة فإنه كان يمسك نفسه عن الاقتراب منها تنفيذًا لما أوصاه به الطبيب :
- حاول أن تتعد عنها جهد الامكان ، انها مصابة بروتومايزيوم في القلب اضافة الى ذات الرئة ، افهمت ؟

وامتلأت أعماق حميد بالاسى من هذا القول وهو يرى هذه
الانسانة التي رافقته اسيرة اوجاع لا يطبق ابداها عنها .

لكزته حسنة على كفه بهدوء وهي تناديه :

• أبا عباس ، أبا عباس .

ففتح عيبيه الممتين :

• نعم .

• اصعد ونم في فراشك ، الارض ليست نظيفة وفيها عقارب
كثيرة ربما تلمسك كفانا الله الشر ، قبل ثلاثة أيام خرجت واحدة
من الجدار وقد قتلها كامل .

وقبل ان تتم كلامها قطع الظلام والسكون صراخ عال منبعث
من بيت جبار المجاور ، والذي لا يفصله عن بيت حميد الا جدار طيني
واطىء ، حيث كان سكان البيتين يسمعان أصوات بعضهما خاصة
في أيام الصيف هذه عندما تكون باحات البيوت مكانا للجلوس
والنوم .

ثم انقطع الصراخ ولكن تبعه لفظ وكلام بصوت مسموع .
فخرج بعض سكان الزقاق من بيوتهم ، أو مدوا رؤوسهم من وراء
الحيطان مستفسرين عن السبب .

ولكن خروج زكية الساقية من بيت جبار وهي تصرخ وتحمل
اغراضها في صرة كبيرة اطفأ الاستفسارات .

سألها الشيخ علي الذي خرج من بيته حاملا يده «مقواراه» (*) ذاك
رأس كبير :

(*) المقوار عبارة عن عصا شميكة لها رأس من القار وتستخدم
كسلاح في القرى جنوب العراق .

- ما بك ؟

وردت زكية بفرع :

- جبار ، جبار

- ما به ؟

- أراد ان يعتدي علي ، كنت غافية وقد جاء وهو سكران ولم

اشعر به •

وهنا ردد الشيخ علي :

- لا ، لا زكية ، عيب هذا الكلام ، هيا ادخلي •

وخرجت وراءها غالية :

- زكية ، استرينا الله يستر عليك ، لقد توهم ، تصورك انا •

وتمتت زكية محتجة :

- ليست هذه أول مرة له دائما يتحرش بي ، ولكنني استغفر

الله واصمت ، أليس للكبر والجيرة حرمة عنده ؟

ثم يردف عليها الشيخ علي :

- هيا ادخلي ، اين تذهين في هنا الظلام ؟

فتجيبه :

- آتية الى بيتك ، ليس لي من ملاذ غيره •

وأعاتتها خيرية التي لحقت بزوجها على ادخال صرتها الى

البيت • بعد ذلك التفت الشيخ علي الى سكان السزقاق الخارجين

وخطبهم بأخاء :

- يا جماعة ، الله يرضى عنكم ادخلوا الى بيوتكم •

وانطبقت الابواب المشرعة من جديد ، وعاد السكون الاخرس

ليلف الزقاق •

وحكت زكية القصة الى الشيخ علي وهي ما زالت ترتجف

ذعرا ، وقالت :

- احسست بثقل يجثم على صدري ، وعندما فتحت عيني

وجدت جبارا أبا العرق وهو يلهث مثل الكلب ورائحة العرق تفوح

منه •

ثم اضافت :

- فرفته في بطنه بكل قوتي ، وصرخت ، وبقوة حاولت

غالية تخليصي منه ، وكان عاريا كما خلقه الله •

وعقب الشيخ علي :

- انت امرأة عجوز يازكية ولا أحد لك ، وبعد فترة قريبة

سأنتي الحكومة بمواسير المياه للمحلة ، وانذاك تصبحين بلا عمل ،

سأبني لك كوخاً هنا وتسكنين معنا ، وتكونين كواحد من أهل البيت

تأكلين ما نأكل وتشربين ما تشرب •

وفرحت من قراره وحاولت ان تقبل يده لكنه سحبها قائلاً :

- استغفر الله ، انت مثل امي •

وخرج الشيخ علي بعد ذلك وطرق باب ابن عمه ، فاستل

حميد جسده المرهق من فرائسه هاتفا :

- من ؟

- أنا الشيخ علي •

وذهب ليزيح سقاطة الباب الصغير ، ودلف الشيخ علي مسلماً ،
وكان حاسر الرأس وقد بان رأسه الحليق بالموس ، وجلس على طرف
السرير بعد ان رفع أذيال دشدشته البيضاء قليلاً . ونطق :

- أنا حائر .

فرفع حميد رأسه مستفهما مما دعا الشيخ علي لان يردف وهو
يمسح على رأسه براحة يده :

- حائر من جبار . كل ليلة يأتي سكرانا ، وفوق هذا أراد
الاعتداء على هذه المسكينة المقطوعة التي لولاها لظلت زوجاتنا وبناتنا
عرضة للانتظار ومن يقطن الطريق من بيوتهن الى النهر ذهاباً
واياباً لجلب الماء .

وتدخلت حسنة بقولها :

- هنا ديدنه منذ أن نزل هنا لكن غالبية المسكينة على عكسه تماماً .
وعقب حميد على كلام زوجته :

- وهذا ما جعلنا تنفاضي ونسكت ، ولو كنت هنا لسمعت شجاره
مع غالبية كل ليلة ، حيث يضربها بكل ما تقع عليه يده ، فتأسي لأُم
عباس لتريها آثار ضرباته على جسدها ، ولكنها هي الاخرى مضطرة
للبقاء معه ، فهي عجوز عاقر لا أحد لها .

وعاد الشيخ علي الى القول :

- أريد ان اخذ رأيك في مسألة تقديم عريضة للحكومة ونذكر
فيها اتنا أناس شرفاء على قدر حالنا ، نصوم ونهلي ونذكر الله وليس

بيننا من يشرب العرق غير هذا الزنديق ، ونطالب بترجيله من الزقاق حفاظا على أعراضنا ، ماذا يحدث لو تسلق جدار بيتك او بيتي أو بيت أي ساكن في الزقاق ؟

وأصفي حميد باتباه لما قاله الشيخ علي وعندما انتهى اقترح عليه حلا اخر :

- عندما يصحو غدا نذهب أنا وانت والعريف مظهر أو اي ثالث من الجيران وتأخذ منه تمهدا بأن يسكر في بيته اذا أراد ولا يسيء للناس كما فعل الليلة ، فأن عارض نكتب العريضة للحكومة أغلب الموظفين يشربون العرق بالنادي ، ولكنهم يذهبون الى بيوتهم وكأنهم لم يفعلوا شيئا ، ولكن هذا السافل يتباهى في الموضوع •

وارتاح حميد لاقتراح الشيخ علي وقال :

- نعم الرأي •

- منذ أن سمع بأن الحكومة ستبني جسرا حديديا ثابتا وكل الذين يعملون في الجسر الخشبي القديم سيسرحون جن جنونه، واخذ يسكر ويشتم الحكومة والجسر الجديد •

وردت حسنة :

- وما فعله بزكية هل له علاقة بالجسر ؟

* * *

كان جبار يعمل جسارا منذ سنوات • حيث يقوم بفتح ابواب الجسر في ساعات الضحى لتعب منه السفن الناهبة الى البصرة وسوق

الشيوخ أو القادمة منهما في طريقها الى الديوانية والحلة والمدن الصغيرة
الاخري الواقعة على الفرات •

وكان طويلا وضخما ، له رأس اكرت الشعر • وقد غبزه
الشيب حتى ابيض كله تقريبا ، ويرتدي على الدوام دشداشة رمادية
من قماش سميك ، وكلما تمزقت استبدلها بأخرى تقاربها في
اللون ، فكان يبدو وكأنه لم يبدلها اطلاقا • وكان يرتدي يشماغا غالبا
ما يضعه على كفه ولا يترك على رأسه الا طاقية ذات خطوط
صفراء • بينما يسحب نعله الجلدي الثقيل على الارض بصوت مسموع
فيتطاير وراءه التراب •

أما وجهه فتميزه شامة كبيرة ، تدلى من وجنته اليسرى ،
وكان غالبا ما يقول لزوجته :

- لا تخافي علي يا غالية ، فحتى اذا دخلت القبر ستضىء لي
هذه الشامة ويكون قبري أحسن من زقاقكم الوسخ هذا •
فتضحك غالية من مداعباته ، وتبدأ بفضل قدميه الكبيرتين بماء
الكوز البارد •

وكانت تقول لجارتها خيرية وحسنة :

- انه انسان طيب ، تحملني ولم يطلقني عندما عرف بأنني عاقر
وقال هذه قسمة ويجب أن تقبل حظنا ، ولو كان غيره لطردي شر
طردة وتزوج غبري منذ سنوات •

ثم تضيف بحرقه :

- ولكنه يجن عندما يشرب الخراء!

ثم تبكي وتواصل البوح والشكوى :

- اخجلني أمام المدو والصديق ، فماذا افعل؟

وتقول لها خيرية :

- ونحن تحملناه من اجلك فقط .

وكان جبارا قد عرف هذه المسألة فاطمأن لها ، وازداد تمسكه

بغالية ولولاها لرميت اغراضه في الشارع ولما استطاعت قدماه ان تدوسا

ارض الزقاق .

* * *

وهنا استأذن الشيخ علي للخروج وعندما نهض التفت الى

حسنة متسائلا :

- وما هي أخبار نجية؟

- الحمد لله ، انها مرتاحة مع زوجها وأمه امرأة طيبة .

- ان ظني بها تف حسن دوما .

٥

اجتمع مجلس الشيخ علي في منزله كالمعتاد . وكان بين
الحاضرين حميد وهاتف ومظهر عريف الشرطة الذي يقع بيته في
مدخل الزقاق .

وكان الشيخ علي يتصدر المجلس بدشدائته البيضاء الواسعة ،
وقد خلع عقاله ويشماغه ويان رأسه الحليق لامبا وصافيا . وكانت
جلستهم في باحة الدار ، وبالتقرب منه « منقلة » فيها وعاء القهوة المرة
كلما هفتت نارها رمى فيها قطعة خشب من كومة جواره مهبأة لذلك .
وكان كيس التبغ يدور من يد لآخرى ، لبعد كل واحد سيجارته
وفق مزاجه .

قال الشيخ علي مواصلا حديثنا كانوا قد بدأوه حول الاولاد
ومشاكلهم :

- كل شيء يتبدل ، هذه طبيعة الحياة ، والامام علي عليه
السلام كان يقول لا تعلموا اولادكم على اخلاقكم فانهم خلقوا لزمان
غير زمانكم .

ويهب حميد رأسه خشوعا لذكر اسم الامام وهو يقول :

- كلامه ذهب ، ولكن اولاد هذا الزمان شياطين . ابني عباس
شيخ رأس أحد زملائه في المدرسة ، لا أدري أبحجر ، أم بصا فمأذا
افعل ؟ والله يعلم بأنسي لم اقرب فراش أمه الا وسميت باسم الله ،
ودعوته بأن يرزقني بابن حلال .

فضحك المريف مظهر وهو يعلق :

- لن تقدر عليهم ، ابني ياسر يفعل نفس الشيء ، ولا يفيد معه
الضرب ولا الشتم ولا أي شيء آخر ، قبل يومين ضربته على صدره
بحدائي المسكري فأغمي عليه . الطيب قال لي انت مجنون ، الولد
مصاب بروماتيزيوم في القلب وانت تضربه بهذه الطريقة ، وربك
ستر وحفظه . -

وعقب الشيخ علي :

- كما قال المريف مظهر الضرب لا يفيد ، ماداموا يذهبون الى
المدارس ويختلطون بتلاميذ مجموعين ممن هب ودب فانهم يزدادون

وقاحة ، ولكن عندما يكبرون سيعقلون حتما ، عزيز الله يحفظه
أصبح رجلا الان وبدأ يحس بالمسؤولية علما بأنه كان شرما حتى
أمه لم تسلم من شرسته •

وقال حميد مقترحا :

- والله أبا عزيز ، اقترح ان تأتي بملا ، ونستأجر له غرفة في
احد بيوت الزقاق طيلة ايام العطلة ليعلم الاولاد قراءة القرآن ، فهذا
أفضل من تركهم في الشارع •
واعترض مظهر :

- أنا أرى ان من الأفضل إلحاقهم بعمل ، العمل شرف ويقوي
شخصياتهم ، ياسر سأرسله الى صاحب مقهى صديق في الصفاة(*) وليس
المهم الاجرة لكن العمل •

ووافق الشيخ علي :

- حل مقبول ، لكنني أقترح ان يعمل البقية مع هاتف في البناء
فهذا افضل •

وهز هاتف رأسه موافقا ثم قال :

- والله عمي أنا لا مانع لدي ، ليتعلموا مهنة على الاقل فالدنيا
دوائر •

وقال حميد :

- لماذا تتعجل ؟ العطلة لم تبدأ بعد •

وابتسم المريرف مظهر وهو يقول :

- عمل عظيم والله سيصبحون كلهم بنائين في المستقبل •

واستجاب الشيخ علي لدعايته حيث ردد ضاحكا :

- المهم أن لا يكونوا حراسا مثل حميد ولا أصحاب لحى مثلي •

وتابع عريف مظهر تعليقه :

- ولا رجال شرطة مثل داعيك •

واشار بيده الى صدره • ثم اخذ رشفة من فنجانہ مستلذا

يطعم القهوة المر وهو يردد :

- ليس هناك شخص مكروه مثل الشرطي ، حتى اقاربك

لا يطمثون اليك ، ويرون وجه عزرائيل ولا يرون وجهك • لا

أحد يثق بك ، حتى احترام الناس لك تحسه خوفا فقط • واتصور

لو طردت من الشرطة لما حياني احد منهم •

ثم ارتشف ما تبقى في فنجانہ • وعندما انتهى من ذلك

واصل القول :

- فكرت أن استقبل واستأجر لي دكانا ، أو اقتطعه من بيتي

واضع فيه بعض العطاريات سيكون ذلك افضل • المهم ان يكون

لدي الوقت لاداء الصلاة في اوقاتها وكسب احترام الناس وثقتهم

بالحسنى •

وهز الشيخ علي رأسه بالموافقة وقال :

- ولو ان المحلة لا تتحمل دكانا ثانيا فيها دكان حمد ووحده

يكفي •

وتتم هاتف :

- كل واحد يأخذ رزقه •

وعاد العريف مظهر الى القول وهو يشير الى اذنه المجدوعة :

- لولا الشرطة لما اصبحت أذني هكذا •

وكان الجميع يتذكرون الحادثة التي حلت به قبل عامين ، عندما كان يطارد مجرماً في أحد أزقة المدينة قرب محلة الصابئة ، فما كان من المجرم الا ان ضربه بمنشار كبير وكاد ان يشج رأسه ، ولكن الضربة وقمت على أذنه فقطعتها واحالت مكانها الى نافورة من الدم الساخن وكاد مظهر ان ينزف دمه لولا ان اسرع رفاقه ونقلوه الى المستشفى حيث مكث هناك فترة •

وقد اصبح المجرمون يعرفون العريف مظهر باسم « أبو أذينة » ولم يوقفه هذا الاسم عن مطاردتهم والقبض عليهم ، قتلة وجنودا فارين من الخدمة ، ولصوفا ، فقد كان حضوره يرعبهم •

تخطى مظهر الاربعين ، ولكنه مازال يحتفظ بقامة مفتولة ، سريع الحركة ، لا يدخن الا نادرا • ولم يذق طعم العرق يوما • وعلى ساعده الايمن اثر طعنة سكين ، ضربه بها المجرم عبد نقرة الذي كانت المدينة تخشاه كل الخشية • وكان يقبض الاتاوات من اصحاب الدكاكين وباعة العرق والموسمات • وقد انتهت حياته منذ ثلاثة شهور عندما كان تملا ودخل سوق القصابين فطعنه احدهم طعنة قاتلة في عنقه وظل يتضرج بدمه النازف قرابة الساعة دون ان يجرؤ أحد على الاقتراب منه •

وتنفست المدينة الصعداء بعد ذلك ، حتى العريف مظهر نفسه شعر بالامان لان خصمه اللدود قد غاب عن الحياة ، على الرغم من

شعوره بالندم العميق ايضا لانه لم ينه يده كما اقسم ذات يوم ولكنه كان يبحث عن المناسبة لذلك حتى لا يصبح القتل جريمة متعمدة ونطق هاتف مخاطبا العريف مظهر :

- كلامك معقول يا ابا ياسر ، فالمدينة فائرة ، فلاحون هجروا قراهم ، ومجرمون كثيرون ، والشرطة دائما هدفهم .
وبعد ان انتهى من تعليقه نهض ليجمع فناجين القهوة . ثم نادى على زكية التي كانت جالسة آنذاك في باب كوخها ، ويدها طاسة النشوق تحشر فيها انفها بين فترة واخرى ، وتعقب ذلك بعدة عطسات لتعود بعدها وتكرر العملية .
- خالة زكية .

فوضعت طاسة النشوق على الارض ونهضت مجيبة :
- نعم .

- خذي الفناجين واغسليها ، ثم أعيديها لي .
- حاضر .

ثم تناولتها منه وذهبت ، أما أم عزيز وولدها وبناتها فقد ناموا مبكرين ، صعدوا الى اسرتهم المركونة فوق سطح الدار تاركين الشيخ علي مع اصحابه ، وعندما يخرجون يدخل الى غرفته ، ويبدأ بكتابة بعض الادعية المطلوبة منه ، أو يقرأ في احد كبه حتى تتعب عيناه ، بعد ذلك يصعد لينام حاملا معه كيس التبغ وجرة الماء .

واعادت زكية الفناجين الى هاتف ، فالتقط دلة القهوة وملأ الفناجين ثم وزعها على الجالسين .

سأله الشيخ علي :

- كيف صحة الوالد؟

- بخير ، والحمد لله .

- ونجية ؟

- مرتاحة ، الوالدة تصر على ان تخبز وتطبخ ولا تطلب منها

الا التسوق فقط .

-بارك الله فيها . امرأة خيرة .

وبعد ان ارتشفوا قهوتهم قال الشيخ علي :

- اتريدون الصدق ان العريف مظهر قد تكلم كلاما مقولا

هذه الليلة . وفي رأيي ان اول من يستقيل من عمله يجب ان يكون

حميدا فالحراسة صعبة ، واللصوص كثيرون ويهجمون علينا

افواجا .

ويمقب حميد ضاحكا :

- من المضحك انهم يأتون الى بيوت الفقراء ويتركون بيوت

الاغنياء ؟

ويجيبه هاتف :

- الاغنياء اصحابهم ، لصوص مثلهم ، لكن بشكل اخر .

ويردد حميد بهدوء بعد ان فكر بعض الوقت بما قاله الشيخ

علي حول استقالته من الحراسة :

- لا ادري اى عمل أعمل اذا تركت الحراسة . ومع هذا
فانني لن اتوانى عن ذلك متى وجدت عملاً مناسباً .
واتكأ الشيخ علي على الوسادة الصوفية الحمراء ، ومدد ساقيه
واخذ يجذب انفاس سيجارته بارتياح وتلذذ وقال :
- لولا مدحت باشا لما صارت هذه المدينة . ان انشاءها كان لعنة
وبسبها ترك الفلاحون قراهم وجاؤوا الى هنا .

وهنا تسأل هاتف :

- ألا تذكر يا عمي كيف أنشأها ؟

أجاب الشيخ علي :

- انني لا أذكر هذا التاريخ ولا يذكره احد ابائنا ، لكنه وكما
قرأت في احد الكتب كان عام ١٢٨٦ للهجرة . حيث ارسل الوالي
مدحت باشا في طلب الشيخ ناصر الاشقر فقدم الى بغداد ، وطلب منه
أن يحول المشيخة الى متصرفية بالفعل لا بالاسم مع بناء مركز لها في
احد ارجاء المنتفق تسمى الناصرية نسبة الى اسم الشيخ ناصر نفسه ،
وقد اوضح مدحت باشا حسنات الاستقرار في موضع والمدول عن
الحل والترحال والسعي وراء الزراعة .

وجذب نفساً اخر من سيكارتته . وقد اتار الحاضرين حديثه
فأصغوا اليه باهتمام . ثم عاد ليكمل بصوته الواصل المتهدج :

- وفكر الشيخ ناصر في الامر ، وتأكد ان الحكومة قد صممت
على رأبها ، وان مقاومتها لا فائدة منها ، لذلك انصاع للامر
وقبل به .

وكانت هذه المعلومات ترد الى اسماع الجالسين لاول مرة ،
والذين امضوا أيامهم جاهلين باشياء تدور حولهم .

ثم هب الشيخ علي من مكانه وكأنه اتبه الى شيء فانه وقال :
- امهلوني لحظة ، سأتيكم بكتاب ، وقرأ لكم معلومات
اخرى عن مدينتكم .

وحمل يده الفانوس وخطا حافيا الى غرفته . ولم يمكث فيها
الا برهة عاد بعدها . وجلس في مكانه ، واخذ يقلب صفحات
الكتاب ببطء وهو يردد وكأنه يخاطب نفسه :

- الناصرية ، الناصرية أه ، وجدتها .

ثم رفع عينيه قائلاً :

- اسمعوا ، يقول مؤلف الكتاب : وما يؤثر عن منصور باشا
السعدون الاخ الاكبر لناصر باشا السعدون انه كان يرى ان تأسيس
الناصرية سيؤدي الى اضعاف المشيخة السعدونية والقضاء عليها ،
فعارض في ذلك معارضة شديدة ، ولكنه تجاه تصميم اخيه وعزمه
على تحقيق رغبة الوالي مدحت باشا لم ير مندوحة من الموافقة على
انشائها (*)

ثم توقف برهة ملتقطا انفاسه ، بعد ذلك سألهم :

- أفهتتم ؟

(*) المعلومات الواردة هنا حول نشأة مدينة الناصرية اعتمدت
على كتاب « بحوث عراقية » ليعقوب سرقيس المطبوع عام ١٩٤٨

فهزوا رؤوسهم • ونطق حميد :

- كلام واضح •

- حسنا ، سأواصل اذن •

وقبل أن يعاود القراءة طلب من هاتف ان يقرب الفانوس

اليه •

- الا انه اشترط ان تشاد على منخفض من الارض لتكون

تحت خطر مياه أبو جداحة ، هذه البحيرة التي يدخلها ماء الفرات

حتى اذا أرادت الحكومة سوياً بالسكان سلطت عليهم مياه البحيرة

واغرقتهم بأقل من ملح البصر •

ثم أطبق الكتاب وزفر متسائلاً :

- اعرقتم ؟ ماذا صنعوا بنا ؟ انا تحت رحمتهم ، بيوتنا واولادنا

وكل ما عندنا ؟

وففر الجالسون افواههم عجباً من المعلومات التي سمعوا •

وقال العريف مظهر :

- ولكنهم حتى اليوم لم يفعلوا بنا هذا ؟

وعقب حميد :

- لانهم سيفرقون منا ايضاً •

وقال هاتف :

- ان انشاء هذه المدينة كان لعنة فعلا ، تماما كما قال العم أبو

عزيز •

وردد الشيخ علي :

- المهم ان نعرف • ولكن لاخوف علينا فالسدود محكمة من

حولنا ، وسكان المدينة كثيرون • وسيصدون الماء بصدورهم ان عجزت

السدود عن ذلك •

دبت الحياة في الزقاق منذ ساعات الصباح الاولى • وخرج
الاطفال والنساء من البيوت ليتأملوا العمال وهم يحفرون ويشقون
مجري في منتصف الزقاق •

وعمرت قلوب النساء بالفرح ، فمواير المياه ستدخل كل بيت
وبأجرة زهيدة تستطيع كل أسرة دفعها •

* * *

مدت امرأة رأسها من باب بيتها وزغرذت فرحا ، وبعد ان
تمت التفتت الى جاريتها التي مدت رأسها من باب بيتها هي الاخرى
وقالت لها بصوت عال :

- الله يطيل عمر الحكومة ، يارب العالمين قتلنا ماء النهر ، كله
وساخة ودود وطين •

وردت عليها الجارة :

- هذا ماء مقم ، يقولون انهم يجلبونه من المصفاة الحمراء
قرب بستان زامل ؟

وعادت الجارة لتقول باستغراب :

- لا أتصور هذا ، ماء المصفاة لا يكفي ، انه للمتصرف والحكام
ومدير الشرطة وللذين اعطاهم الله فقط .
ثم اتبعت الى ابنها الذي كان يتغوط أمام الباب وصرخت
فيه :

- قم ابن المشتعل .

ثم أمسكت به من يده ، وقادته ، وكان لا يزال رافعا ثوبه الى
أعلى وهو يطوي طرفه حول بطنه، وبكى محاولا الافلات لتأمل ما يصنعه
العمال . لكنها أدخلته بالقوة واطبقت عليه الباب وهي تقول :
- كم مرة قلت لك مراقب البلدية لا يرضى ، أتريد ان
يجبسوننا ؟

* * *

وظلت الجارة الاخرى تراقب العمال بعض الوقت بفرح ،
وعندما أطلت حسنة من باب بيتها حيتها ، ثم سألتها :
- كيف صحتك أم عباس ؟

- بخير والحمد لله .

وعاد صوت التجارة ليقول :

- فرحتنا كبيرة ، زكية تمبت من حمل صفائح الماء ، يوم مريضة ويوم رأسها مصدوع ، اليوم أعطانا الله ، الحنفية بالبيت ، والماء مثل الشط ، موجود متى ما أراد المرء ان يسبح ، او يغسل ثيابه ، أو يرش بيته .

* * *

جلست زكية في زاوية من كوخها واطلقت النحيب المختزن في صدرها . سمعت خيرية صوتها فدخلت عليها وهي تردد بعتاب :
- عيب زكية ، لماذا البكاء ؟ الله لا يقطع في عبادته ، أبو عزيز بنى لك هذا الكوخ لتعيشي معنا ، هل قصّرنا معك بشيء ؟
وتمتمت زكية من بين دموعها :

- لولا العريف مظهر لما جاؤوا بالماء الى هنا ، كل يوم يكتب عريضة ، والذين لا قلوب لهم يوقعون عليها .
- وهل هذا عمل طالح ؟ ابدا ، انت تمبت والناس تمبوا ، بنات الاشراف رائحات وعائدات من الشط من اجل صفيحة ماء نصفها طين ، والشباب يسمونهن الكلام الوسخ ، هل يرضيك هذا ؟
واخذت زكية تمسح عينيها بطرف فوطتها السوداء وهي تواصل الندب :

- ربي انتقم من العريف مظهر؟

وهنا صرخت فيها خيرية :

- قومي اغسلي وجهك وكلي لك لقمة ، عيب هذا الكلام ، لولا

الشيخ علي والعريف مظهر لاكلت الكلاب محلتنا كلها ، وفوق هذا

انت غير راضية؟

ونهضت زكية ، واتجهت صوب المفصلة ، وملأت كفيها بالماء ثم

القه على وجهها مبسلة ، وكررت العملية ثانية ، ثم تمخطت بصوت

عال طاردة الشوق الجاف من منخريها •

وجاءها صوت خيرية :

- فطورك تحت القفة •

* * *

ولحق بحسنة ولداها ، فطلبت منهما ان يدخلن البيت ويتركا

المال في شغلهم •

فاحتج كامل :

- ليدخل عباس أولا وانا الحق به •

فصرخ فيه عباس :

- أسكت ، أبأفك •

ـوانت ؟ أبو من ؟

وقاطعتهما أمهما :

ـ قلت لكما ادخلا ليست لي القوة على الصراخ اكثر .

وتتمم كامل بألم :

ـ لماذا يناديني بأبي فك ؟

وضربت حسنة عباسا على ظهره براحة يدها ، فانطلق راكضا ،
ثم عبر الى الجهة الاخرى من الزقاق ، واتكأ على الحائط ، وظل
واقفا هناك .

وصرخت فيه بصوتها اللاهث :

ـ سيأتي أبوك ويكسر رأسك .

وجعلها انفعالها هذا ترتمي في موجة من السعال العاتى ، ناء
بها صدرها الداوي ، وبصقت بلغما مرا ، ثم دلفت الى البيت ، وتألّم
كامل لوضعها فلدحق بها .

وبقي عباس وحده في الشارع . وعندما رآه ياسر خطا صوبه
ساجبا جسده الضامر الخجول بخطوات بطيئة ، وقد ازداد وجهه
صفرة وبرزت اسنانه ، بينما اتفخ بطنه بطريقة مقلقة للنظر ،
وامتدت من دشداشته الكلكلاء ساقان هزيلتان ، وتشرب بياض عينيه
الواسعتين بحمرة طفيفة . أما شعره الكستنائي الناعم ، والذي كان
يميزه فقد انطرح على جبينه لا معا .

وعرض عليه عباس ان يلعبا بالكتاب .

- لدي ثلاثة فقط .

- لنلعب اذن ؟

- لكنها في البيت

- اذهب واجلبها ، أو دعنا نحاول قفز الساقية .

واعترض عباس :

- انت مريض فلا تقفز .

- انني أقفز حتى يقوى جسمي ويشفي .

- بعد أن تشفى افعل ذلك .

ثم جلسا على حافة الساقية التي تجمع ترابها المزاح على جانبيها ،
وظلا يثرثران . قال ياسر :

- يقول والدي ، انهم سيجلبون لنا الكهرياء ايضا .

وتساءل عباس :

يصبح شارعنا مثل شارع الهواء (*) ؟

- نعم .

- وفي البيوت هل نضع اضوية مثل المدرسة والمستشفى ؟

- لا ، في الشارع فقط ، سينصبون اعمدة طويلة ، وستضاء

المصابيح المعلقة فيها منذ غروب الشمس حتى شروقها .

وهتف عباس بفرح .

- ٦٠ -

(*) اسم الشارع الرئيسي في مدينة الناصرية وسمي بشارع الهواء

نظرا لسعته وطوله .

- ونستطيع ان نلعب في الضوء؟

- نعم •

وكانا يؤرججان سيقانهما في الساقية ، وقد انغمسا في حديثهما الحالم ،
فعاد عباس الى التساؤل :

- ولكن لماذا لا يعطوننا الكهرباء في البيوت؟

وفكر ياسر برهة ، ثم نطق :

- لأن بيوتنا من الطين والقصب ولذا تحترق عندما تملق فيها
المصايح الكهربائية •

وانحنى عباس وملاً كفه بالتراب المندى ، واخذ يذروه أمامه
في قعر الساقية وقال :

- عندما اصبح معلماً سأبني بيتنا من الطابوق ، وانت؟

- يقول والذي سنشتري بيتا في الجهة الاخرى من النهر •

- ولماذا؟

- هناك احسن ، محطة القطار قريبة منا ، وكذلك البساتين
المليئة بالرطب والرمان ، وهناك ايضا بلابل وعصافير كثيرة •

وقطع حديثهما مراقب العمال وهو يصرخ فيهما :

- هيا انهضا ، واذهبا من هنا •

فقال عباس :

- نحن جالسان ولم نفعل شيئاً؟

- ابتعدا عن وجوهنا ، هيا •
- ونهضائنا ارتصفا في باب بيت حميد ليواصلنا ثرثرتهما •
- قال ياسر :
- عملت في مقهى ، ولكنني هربت •
- وعقب عباس :
- ولكنني سأعمل مع زوج أختي في البناء •
- كم يعطيك أجرة ؟
- أربعة دراهم •
- وصفر ياسر من كبر المبلغ وردد :
- أما انا فقد اعطاني صاحب المقهى نصف دينار عن عمل أسبوع •
- وهنا قال عباس كمن تذكر شيئا :
- لماذا لا تدعنا نذهب الى السينما يوما ؟
- ذهبت قبل ايام مع ابي وشاهدت فيلم طرزان في الادغال •
- حلو ؟
- عظيم • طرزان وشيئا ، ان عضلات طرزان متينة ، ويقفز بالحبل من شجرة الى اخرى ، وقد قتل فيلين وثلاثة تمايح وأسدين •
- والدي يقول السينما فساد ، وعمي الشيخ علي يقول انها حرام •
- وضحك ياسر وهو يهز يده ساخرا :
- أي فساد هذا ؟

ثم تحركا من مكانهما وظلا يخطوان ويتحدثان :

- لو كانت عندي فلوس لذهبت كل يوم •

- بكم بطاقة الدخول ؟

- بخمسين فلسا •

- كثير ، والدي اشترى لي علبة اصباغ مائة بثلاثين فلسا ،

ارخص من السينما •

- وماذا ستفعل بها ؟

- سأرسم •

- وهل تعرف ؟

- لا ، ولكن سأتعلم

- وكامل ؟ •

- لا يحب الرسم • يحب الرياضة فقط •

وردد ياسر بانكسار :

- الطبيب منفي من الرياضة •

- كامل يلعب كرة السلة جيدا •

وهنا لمح والده قادما وهو يحمل بندقيته على كفه ، وقد اطرق

في مشيته ، فاتفض قائلا :

- والدي جاء •

ثم هرول باتجاه بيته •

القسم الثاني

أيام تمر

١

انتشر في الزقاق خبر مفاده ان بيوت العاهرات التي تحتل
جزءا كبيرا من وسط المدينة ستهدم وسيبنى مكانها مسجد ومدرسة
وملعب لكرة القدم •

واستبشر السكان لهذا الخبر اذ ان هذه المحلة تتمتع في منتصف
الطريق بين الزقاق والسوق وكان على جميع الناهيين الى السوق أن
يخترقوها أما النساء فيفضلن الالتفاف من جهة شارع الهواء مما
يجعل مسافة الطريق مضاعفة •

قالت خيرية :

- الله ينصر الشيخ حسن •

وتساءل حسنة :

- ومن هو الشيخ حسن هذا؟

- يقول ابو عزيز انه عالم ديني جاء من النجف ،وعندما رأى هذه البيوت قال : أين ذهب الاسلام ؟ ثم كتب عريضة الى المتصرف ووقمها كل التجار والموظفين والاهالي وطالب فيها بتهديم هذه البيوت .

ورددت حسنة والوهن يمتصر حنجرتها :

- ورضي المتصرف ؟

- نعم . وسينقلونهن الى البصرة .

ثم اضافت :

- لقد فسد اولادنا ، أتدرين ؟ اخبرني ياسر انه رأى ابني

عزيزا يدخل احد هذه البيوت .

- الله يستر .

- وجبار يذهب الى بيوتهن ايضا ، كانت لديه صاحبة صرف

عليها كل فلوسه .

وكانتا جالستين في باب دار الشيخ علي ، في أمسية يثيد فيها

الحر على الزقاق ، وقد خرجتا طلبا لنسمة هواء . حيث حملت

كل منهما بيدها مروحة من سيف النخيل تحركها أمام وجهها

يهدوه .

ورغم سخونة الجو كانت ارض الزقاق مليئة بمياه النسييل

وبراز الاطفال وقشور الرقي وعظام السمك .

وانضمت الى مجلسهما غالية • وبعد ان حيتهما فرشت طرف
عباءتها في بقعة جافة وجلست ثم تساءلت بعد برهة :

- ماذا يقول الشيخ علي؟ أصحيح الخبر؟
واجابتها خيرية :

- نعم • الحكومة سترسل عمالا لهدموا كل البيوت •
- ولماذا يهدمونها؟ اليس من الافضل ان يوزعوا على الفقراء؟
- انها بيوت وسخة لا تسكنها الا الارواح الشريرة •
ورفعت غالية رأسها الى السماء بعد ذلك متممة :
- انت كريم يارب • كانت هذه الفتنة وسط بيوت الاشراف
واهل الله •

- الناس بدأت تخاف على اعراضها •
وعادت غالية لتقول :

- في الشتاء الماضي قتلت واحدة أمام عيني • ذبحها اخوها بخنجر ،
ولم يتقدم احد لنجدها ، الكلل كانوا يرددون تستحق الموت • ولما
اتهى من ذلك سلم نفسه للشرطة • وبقيت ثلاثة ايام وصورتها أمام
عيني وهي تصرخ وتستجد •

ثم أعادت شعرها الكث واخفته وراء القوطة بعد ان بانست
الشعيرات البيضاء التي غزته وهي تغادر الاربعين دون ان تضم
احشاؤها رائحة جنين •

وعادت خيرية الى القول :

- سيني المسجد بمجرد ان يطردوهن ، وقال ابو عزيز انه
سيترع بخسة دنابير • وكل واحد في المحلة عليه ان يتبرع بالبلغ
الذي يطيقه كسبا للاجر والثواب •
وتساءلت غالية :

- لعل الله يهدي جبارا وهو يسمع صوت الاذان يتردد في
اوقات الصلاة :

وقالت حسنة :

- عليهم ان يذهبوا لاهل الاكواخ ليجمعوا منهم النقود ،
انهم يعملون جميعهم ، الرجال والنساء والاولاد ، ولديهم
صندوق يحتفظون به عند شيخهم ويجمعون فيه الفلوس
من اجل عاشوراء كل عام •

وعلفت غالية على قولها :

- هؤلاء اغنى اهل المحلة •

وكان مصطلح اهل الاكواخ يطلق على افراد قبيلة «آل أبو نصف»
الذين هجروا ارضهم الواقعة على مشارف الشطرة ، غادورها
بمجموعهم ، وحطوا رحالهم هم وكلابهم وابقارهم واغنامهم في غربي
الناصرية • وكانوا متحمسين للعمل فتوزعوا المهن الصغيرة ، وكل
غايتهم كانت الكسب ، وقد الصقت بهم السرقات التي وقعت في المدينة
بعد مجيئهم ، ولكن ذلك لم يثبت ولكنهم كانوا يسرقون بعضهم
البعض ، وتحدث بينهم مشاكل عديدة كلها تحسم عن طريق شيخ
القبيلة قبل أن تصل الى اسماع الشرطة •

ووجهت خيرية كلامها الى غالية متسائلة :

- كيف جبار ملك هذه الايام ؟

- الزانية لا تتوب والماء لا يروب ، ماذا تنتظرين من جبار ؟

كل يوم يسكر ، وكل يوم يضربني ، ولولا حميد والشيخ علي

للعب في المحلة كما شاء ولا أحد يستطيع منعه •

وانا نطقت حسنة :

- انهما يحترمان جيرتك وكبر سنك ، ولولاك لما ابقياه يوما

• واحدا

وردت غالية بألم :

- قلبي لا يسمح لي بأن اتركه وأمضي ، لي أولاد اخت في

سور ، ويعرفون حالتي ، وكم مرة نصحوني بأن اتركه

واذهب اليهم ، ولكن الله لا يقبل بهذا ، انه رجل كبير ولا بد ان

يذكر الله يوما ويتوب اليه ، وربما يسترشد لطريق الخير بعدما

يبنى المسجد •

وعادت لتضيف :

- نذرت ذبيحة للعباس واخرى لسيد خفيحة احة للم

اذا ترك العرق ، والله أعلم بقلبي •

وكان الاولاد آنذاك يلعبون في الزقاق ، بينهم عباس وكامل

وياسر وقد صنعوا لهم كرة من الخرق البالية ، وصياحهم يتعالى وهم

يشجعون بعضهم اثناء اللعب •

انتبهت حسنة الى ياسر الذي لم يشارك اللاعبين بحماس
وقالت :

- ابن العريف مظهر اصبح مثل القصة ؟
وتمتت خيرية :

- الله يكفينا الشر ، به مرض في قلبه •
ورددت حسنة بمرارة :

- حالته مثل حالتي •
وقالت غالية :

- الله يحفظه لابويه ، انه وجيدهما ، واما امرأة خيرة •
وتساءلت حسنة غامزة :
- وابوه ؟

- رجل طيب ، ولكن فيه عادة سيئة واحدة •
وتساءلت خيرية وحسنة بصوت واحد :
- وماهي ؟

- يركض وراء النسوان •
واضافت وهي تبلع ريقها :

- وعنده صاحبة ، ويقولون انه سيتزوجها ويطلق أم ياسر •
وتمتت حسنة :

- الرجال ليس لهم أمان •

واضافت مستدركة :

- ولكن لا اظن انه سيفعل هذا •

وعلقت خيرية :

- أبو عزيز قرأ له طالعه ، واخبره انه سيذهب لحج يست

الله ، ولم يخبره بأنه سيتزوج ثانية •

- أم ياسر مسكينة !

واخذت مواضيع الحديث تعدد وهن في جلستهن الهادئة تلك ،

وأمام ابواب البيوت الاخرى التي يضمها الزقاق اجتمع نساء اخريات ،

وكانت هذه احدى عادات نساء الزقاق قبل الايواء الى بيوتهن مساء

حيث يجلسن مثرثرات في انتظار عودة الرجال من اعمالهم ، وهم

يحملون معهم الرقي والبطيخ والتمر وباقات الفجل الطري •

أما الاولاد فيملأون الزقاق بصياحهم وتهريجهم ، وغالبا ما

يتشاجرون وقد يصل بهم الامر الى ان يشجوا رؤس بعضهم

بالحجارة ، ويعقب هذا تدخل الاهل فيتضاربون بالمصى والعقل ،

ولكن الامور لا تصل الى الشرطة الا نادرا ، فبعد دقائق يتدخل

الكبار ويصالحون المتشاجرين لتعود الحياة الى ما كانت عليه في

الزقاق •

قالت غالية وكأنها تذكرت شيئا فاتها ان تقوله :

- اليوم كنت في السوق ، وسمعت الناس يتحدثون عن

فلسطين •

وتساءلت خيرية :

- وما هي فلسطين هذه ؟

- انها مدينة بعيدة ، أبعد من الموصل ، واهلها عرب مسلمون ،

لكن اليهود يريدون قتلهم واخذ مدينتهم •

ورددت حسنة من قلبها :

- اليهود ايديهم مغلولة ، مخانيث ، فكيف يفعلون هذا ؟

واجابتها غالية :

- قلت هذا ، ولكن حكومتنا سترسل الجيش والشرطة الى

هناك لمحاربة اليهود وانقاذ اخوتنا ومن يدري ربما يرسلون حتى

الحراس •

وقالت خيرية :

- اللهم اكفنا الشر والبلاء •

وسألت حسنة :

- واليهود الذين في الناصرية ؟

- موسى وخصوري وكرجي وغيرهم سيسافرون الى فلسطين ،

الحكومة ستطردهم •

- يستحقون ماداموا يقتلون اهلنا ويطردونهم عن بيوتهم •

ولكن تساؤلات غالية زرعت الحيرة في رأسي صاحبتيها ، اذ

بدت المسألة بالنسبة لهما غريبة ومبهمة ، فحدود عالمها ضيقة لا

تتعدى المدينة والقرى المحيطة بها ، وابدت تصور للعالم هو مدينة

كربلاء التي زارتها قبل ثلاث سنوات •

- وكيف يصل الجنود الى فلسطين؟

هكذا تساءلت خيرية فأجابت حسنة :

- بالسيارة ، بالقطار ، او على البغال ، الجنود لديهم بغال كثيرة

• عشرات ، مئات •

وقالت غالية :

- لا أحد يعرف مكانها ، لكن النساء في السوق يرددن نأسي

بفلس ومعه طين فيصبح عندنا فلسطين حتى لا ينسين الاسم •

وقطعت خيرية حديثهما بقولها :

- الشيخ علي علي وشك المجيء ، هذا وقته ، واول ما يدخل

البيت سأسأله عن فلسطين هذه •

خبران استحوذا على المدينة ، واصبحا موضوعا لكل حوار يدور
 بين اثنين • الاول حديث فلسطين الذي كان مبهما ، والجنود الذين
 ذهبوا بعد ان ودعوا اهلهم ليرتموا في ذلك المجهول البعيد ، ويكبر
 اللغز في القلوب •

وبدا المعلمون يحدثون تلاميذهم عن فلسطين وكونها ارضا
 عربية اهلها عرب مسلمون لكن الصهاينة جاؤوا فأخذوها وطردوا
 اهلها •

وكانت تعليمات مدير المعارف الواصلة من الجهات العليا تريدهم ولكن المعلمين وبدافع من حماسهم الوطني مضوا اكر في شرح القضية وأبعاها ودور الدول الاستعمارية فيها متحدين بذلك السلطة وارايتها •

وفكر الشيخ علي بشراء راديو صغير ليتابع الاخبار وحتى يستطيع الاجابة على تساؤلات اصحابه حول فلسطين هذه ، ومصير الجنود الذاهين الى هناك •

أما الخبر الثاني فكان ترحيل العاهرات من محلتهم • وقد كان يوم ترحيلهن مشهودا ، حيث تجمع سكان المدينة ليراقبوهن، وهن يحملن حقائبهن ويفادرن المحلة بسيارات حمل كبيرة • كانت النساء فرحات لذلك فقد اصبح أزواجهن بأمأن من هذا الاغراء اليومي المتواصل الذي يهددهم •

أما الرجال والشبان فقد تألم الكثيرون منهم لذلك ، وبدت تدور بينهم احاديث ساخطة حول ما حدث •

قال واحد :

– اين نمطي وجوهنا ؟

وقال ثان :

– لماذا يطردوهن ؟ أليس من الافضل ان ينقلوهن الى مشارف

المدينة ؟

وقال الشيخ علي :

- لا فائدة من هذا ، انهن مثل الوباء ، في طهران جمعوهن في محلة واحدة اسمها « دروازة قزوين ، وسورها ووضعوا بابها حراسا .

وقال قصاب :

- سيتوزعن بين البيوت حتما ، انتظروا وسترون .

وقال طالب مراهق :

- ليس أماننا الا ممارسة العادة السرية .

* * *

بدأت في المدينة حملة جمع تبرعات لبناء المسجد ، وتسارع التجار والموظفون والعمال في التبرع . بعضهم تبرع نقودا وآخر طبوقا أو اسمتا .

وكان الشيخ حسن يحضر كل مساء في المكان مهيا ووقورا ، بجسمه الناحل ولحيته الطويلة وعمامته البيضاء ، ومعه مجموعة من اتباعه ومريديه الذين يباركون كل كلمة يقولها ويهزون رؤوسهم تأييدا لها .

واخذ الشيخ حسن يخطب في الحاضرين في فسحة فارغة مقابلة لمبنى الجامع الذي يجري تشييده بهمة . وكان يحذر من

الفسق والفجور فمضى هذا ان القيامة ستقوم وان الله سيتقم من
البشر اذا لم يتبعوا اقواله ويمتنعوا عن الامور التي حذرهم من
القيام بها .

وكان معظم انصاره من الشيوخ والمتقاعدين اضافة الى رجال
اخرين معتمدين بعقائهم سوداء وبيضاء يحملون اسماء السيد فلان او
الشيخ علان وكانوا يعاونون الشيخ حسن في شرح آيات القرآن
واحاديث النبي والصحابة .

وتطرق الشيخ حسن في خطبه الى فلسطين والجهاد في سبيل
نصرة الاسلام ، وكان الشيخ علي يحضر المجلس احيانا ومعه ابن
عمه حميد اذا كانت نوبته في الحراسة للقسم الاخير من الليل .

وبدأت هذه الكلمة الغامضة - فلسطين - تجدد في اذهان الناس
معنى وضوء . ولكن الامور حسست بسرعة وعاد الجنود الى ثكناتهم
وهم يحملون معهم ذكريات عريضة عن اليهود والحرب والخيانة
والمجاهدين والملوك والانكليز ، واصبح لرجال المدينة ما يتحدثون به
في جلساتهم الخاصة ، في المساجد وعلى مقاعد المقاهي وحتى في المدارس
والدوائر الرسمية والحقول .

* * *

قال الشيخ علي في مجلسه :

الاسلام لم يكره اليهود على دخوله لكنهم غدارون ،
حاربوه سرا وعلانية . . .

وعلق حميد :

- هكذا ضاعت فلسطين • سمعت ان قسما كبيرا من المهاجرين
قد جاؤوا الى العراق ؟

- نعم • توزعوا بين البلدان العربية ، فأين يذهبون ؟ انهم
أهلنا وعلينا ان نأويهم •

وكان جلالة لا يفضلون سماع نشرات الاخبار من الراديو
الصغير الذي اقتناه اخيرا ، اذ أنهم لا يفهمون اللغة الفصحى
التي يتحدث بها المذيعون فكان يضطر لشرح معظم الاخبار ، ويضيف
اليها مما عنده ويربطها بأحداث سابقة وفق اجتهاده •

قال هاتف بألم :

- قتل احد اصدقائي ، لم يمض على تجنيدته سوى ستة شهور عندما
اخذوه الى هناك • لكن الجنود عادوا ولم يعد معهم •

وتتمن الشيخ علي •

- لقد ذهب شهيدا مادام يدافع عن دين الله •

وعاد هاتف الى القول :

- أمه المسكينة جنت •

وكان حديث هاتف هذا قد حفز في ذهن حميد ذكرى ماضية

فقال :

- سنة واحد واربعين شاهدت بعيني كيف قتل أحد الجنود

العراقيين الكابتن جيفرز في منتصف السوق وامام الناس ياله من
شجاع !

وردد الشيخ علي :

- لعنة الله على الكابتن جيفرز ذاك ، كان أمرا للحامية البريطانية في أور وبموته اضطررنا الى الهرب وترك بيوتنا مخافة ان يفتك بنا الجنود الانكليزي .

واكد حميد :

- وقد فعلوا ذلك وغاروا علينا بطائراتهم فقتلوا اكثر من عشرين شخصا في شارع الهواء فقط ، ولكن النائب ضابط كاظم برجس رحمه الله قاومهم وحيدا برشاشته من فوق الثكنة ، ولم يستطيعوا قتله الا بعد ان نفذت ذخيرته .

وقال هاتف :

- اتذكر هذا ، وكنت لا أزال صغيرا ، كما اتذكر التشيع الذي اقيم له .

ونطق الشيخ علي :

- هذه حادثة قريبة يا ولدي . لقد خرجت كل المدينة في تشيعه ، واغلقت الدكاكين وتعطلت الاعمال . الله يرحمه .

وتساءل حميد مخاطبا الشيخ علي :

- ماذا في الراديو من اخبار ؟ عن فلسطين ؟ عن الملوك ؟

اجابه الشيخ علي وكأنه يبوح بسر :

- الصدق لا يمكن حجبهِ ، وقد التقيت بضابط اعرفه ، والده
صديقي جدا ، ولا داعي لذكر اسمه ، وقد اخبرني ان الخيانة
بدأت من بعض الزعماء العرب •
ولم يفهم الجالسون ما أراده بالضبط من تعليقه هذا ، فتساءل
هاتف :

- وكيف؟

أجاب وهو يلتقط حبات مسبخته يتمهل ، ثم يعيد اسقاطها
صوت مسموع :

- الزعماء هم الذين باعوا لها لهم ، وكانت الحرب كذبا في
كذب ، أفهتتم؟

كان رده اكبر من حدود عالم هؤلاء الناس البسطاء ، فبعد فترة
من الصمت الذاهل اخذوا ينظرون بوجوه بعضهم دون ان يستطيعوا
النطق بكلمة •

ثم ردد الشيخ علي بعد ذلك وهو يهز رأسه بمرارة :

- خيانة •

وكان يضغط على مخارج الحروف وهو يقذف بهذا الحكم •

جاء مراقب البلدية بدلته الخضراء الكالحة ، ذات الازرار
 النحاسية الصفراء ، رفع سدارته من فوق رأسه - ثم مسح شعره
 الاثيب براحة يده ، وضع السدارة تحت ابطه بينما جالست عيناه في
 الزقاق ، وقد تكومت فيه فضلات الاطعمة ومياه الفسيل •

واخذ يتمم بسخط :

- لا فائدة ، كان من الواجب ان لا يجلبوا لكم مواسير المياه
 ويتركونكم تلهثون مثل الكلاب الى الشط •

بصق على الارض بحدة ، وخطا مسرعا صوب باب الشيخ علي
واخذ يضربه بقوة بقبضة يده ، وخرجت زكية وطاسة الشوق بيدها،
والعطسات مازالت تترى من انفها • وعندما رأته توقفت وراء الباب
لانها نسيت ان تضع عباءتها على رأسها • ثم سأله :

– ماذا تريد؟

فانهد عليها :

– لماذا ترمون المياه في الزقاق ؟ الا تعرفون بأن هذا يجلب لكم
الامراض ؟ أليست لكم انوف لتشموا هذه الجيفة ؟
فرددت زكية :

– بسم الله الرحمن الرحيم ، أذكر الله ، أين نذهب بالماء
الوسخ ؟

– اشربوه ، احملوه وارموه بعيدا ، المهم ان لاترموه في الزقاق،
لوجاء رئيس البلدية ورآه لفصلي من وظيفتي •
واطبقت زكية الباب بعد ان صرخت في وجهه :
– أليس في الزقاق أناس غيرنا ؟ فلماذا تأتي الينا ؟

ثم تبعت ذلك بكلمات شتمية اطلقتها من فمها الادرد • وبعد
ان جلست في باب كوخها واصلت الاستشاق ، حيث تعقبه بعطسات
متتالية ، تخرج من فمها المثقوب المنخرين •

وخرجت خيرية لتسألها :

- من طرق الباب ؟

- مراقب البلدية •

- وماذا يريد ؟

- يقول لماذا ترمون المياه في الزقاق ؟

- ولماذا اخترنا نحن بالذات ؟ كل الناس ترمي المياه •

- هذا ما أجبته به •

وقالت خيرية :

- اتريدين الصدق يا زكية ان رائحة زقاقنا اصيحت لا تطاق ،

لا شمس تصل اليه حتى يجف الماء ولا الحكومة تبلطه وتريحنا ؟

- لا أظنني أظل حية حتى اليوم الذي اراه فيه يبلط ، أوف

يا أم عباس من يفكر بنا ؟ شغلهم شارع المتصرف فقط ، كل سنة

يبلطونه وتهدمه السيارات فيمودون ويبلطونه من جديد •

وكان عزيز متمددا في فراشه ، اذ لم يذهب الى المدرسة بعد ،

وقد اصفى لحديث والدته وزكية ، زحزح جسده من الفراش ثم

استند على كوعه ورفع رأسه قليلا ، تأملهما ثم حياهما ، وبعد ذلك

قال مخاطبا زكية :

- اتدرين يا جدتي لماذا يبلطون شارع المتصرف كل سنة ؟

فتوقفت عن استنشاق نشوقها ، واعطته وجهها المجوز المسائل ،

فقال :

- حتى يسرقوا المزيد من النقود •

وسأله أمه :

- من هم ؟

- رئيس البلدية ، المتصرف ، الموظفون الكبار ، الكل لديهم حصتهم من المقاولين ، وهكذا يبلطونه تلبيطا عاديا حتى يتهدم بسرعة ليلطوه من جديد بعد مناقصة شكلية.

وانبهرت أمه امام رده فسأته :

- ومن علمك مثل هذا الكلام !

- وهل هناك شيء مخفي ؟ أسألي أي واحد ليحك نفسك الجواب ، السرقة والرشوة والعمولات ، اسمعي ، أنتظيمين ان تقولي من اين النقود لموظف راتبه خمسون دينارا شهريا ويخسر كل ليلة مائة دينار في القمار ؟

- أسكت واكفنا الشر ، اذا سمعت احد تتحدث بمثل هذا

الحديث سيكون مصيرك السجن .

وضحك عزيز وهو يزيح الغطاء عن جسمه ، ثم غادر سريره

قائلا بلا مبالاة :

- واذا سجنوني ؟

وضربت الام على صدرها وهي تردد :

- بسم الله الرحمن الرحيم .

واخذ تكرر البسمة عدة مرات قبل ان تقول له منذرة :

- اذا سمعتك تتحدث بمثل هذه الاحاديث بعد سأخبر والدك ،

نحن ناس فقراء يا ولدي ، ووالدك رجل كبير وانت ولده الوحيد

واعتماده على الله وعليك ، فلماذا تثرثر بمثل هذه الأقوال ،
وللمحيطان اذان ؟

وشمر عزيز ساعدي دشداشته ، وهو يجلس القرفصاء قرب
خفية الماء ، ثم فتح الصنبور وبدأ يغسل وجهه •
كان فتياً ، أعوامه تخطو نحو الثامنة عشرة ، لكنه دخل المدرسة
متأخراً بعض الشيء وبعد ان أتم حفظ القرآن ، وهو الان في السنة
الثالثة المتوسطة •

قال لأمه وهو يمسح بيده على وجهها المتفضن الذي غزاه الكبر
مبكراً :

– يا أمي العزيزة كل اقوالك صحيحة ، ولكن كل أقوالسي
صحيحة ايضاً • نحن نعيش في وسط من اللصوص ، وكل واحد
يسرق متى ما وجد فرصته •

واحست خيرية بالفخر من كلمات ابنها التي تدل على رجولة
مبكرة ، فقد شهدته وهو يتابع قراءة الكثير من كتب والده ، او كتب
أخرى كان يأتي بها ويخترن القسم الأكبر منها في صندوق خشبي كانت
تستعمله لحفظ ملابسها قبل سنوات ، وتذكر كيف حفظ القرآن
حيث صاحب والده فترة وهو يفترش حصيرة على أحد أرصفة شارع
الهواء ويضع امامه كتبه ومحابرہ واوراقه ليقراً طالع الناس أو
يكتب لهم ادعية لطرد الشرور والمصائب •

وقدمت له والدته فطوره ، آنذاك التفت الى زكية المنهمكة في
نشوقها وخاطبها :

– جدة زكية ، رحمة على اجدادك ، اتركني النشوق حتى أتم
فطوري •

وامتلت زكية لطلبه ، أركنت طاسة النشوق ثم التقطت
مكنسة كانت موضوعه جوار بابها ، وبدأت بكنس الباحة المقابلة له •
خرجت من كوخها قطعة بيضاء • وظلت تتابعها في تحركها حيث تمسدها
بذراعها أو بطرف عباؤها بين فترة واخرى ، فضربتها بقوة وهي
تردد :

– ملتصقة بعجيزتي ليل نهار ؟

فهربت القطة وهي تموء فزعة • وداعبها عزيز بقوله :

– انت علمتها على ذلك •

– تصور البارحة اندست تحت الغطاء معي ، فانقلبت عليها دون
أن أدري فصرخت بعد ان خمشتني • انظر •

ومدت يدها ليري آثار الخدوش عليها •

• وواصل عزيز مداعبته :

– انها تجبك ولذلك تفعل هذا الشيء بك •

– والله لولا كوثر لزميتها في الشط •

ثم واصلت الكنس •

- وطرق الباب • فرمت المكنسة ، وحملت جسدها لتفتحه •
- فأذا بالقادمة أم ياسر ، وكانت تتحج ، فهبت تسألها مستفسرة :
- خير ان شاء الله ؟
- هل هناك خير من وراء عريف مظهر ؟
- واسرعت خيرية اليها وامسكت بها من كفها ثم أجلستها على
- الحصيرة جوار عزيز وهي تسألها :
- ماالذي حدث ؟
- مظهر تزوج •
- وفرت خيرية فاها :
- ماذا تقولين ؟ تزوج ؟ ومتى ؟
- قبل ثلاثة أيام ولم اعرف الا اليوم ، عندما طلب مني ان افرغ
- غرفتي وانتقل أنا وياسر للغرفة الاخرى الصغيرة ، وعندما سأله عن
- السبب قال انه تزوج ويريد الغرفة لزوجته •
- ثم انتحبت من جديد بصوت كبير ، بينما تمتت زكية وهي
- لا تزال واقفة والمكنسة بيدها :
- الرجال لا أمان منهم •
- واضافت متحسرة :
- اى والله •
- وعادت أم ياسر الى الشكوى :
- وعندما بكيت نزع حزامه العسكري وبدأ يضربني •

واذاحت الباعة كاشفة عن يدها ، وقد احمر مكان الضرب ،
كما بان ورم خفيف في احدى عينيها •
وقالت أم عزيز مواسية :
- ماذا تفعلين ؟ امرك لله •

وكان عزيز يراقب المشهد دون ان يجد ما يقوله ، وبقي
يتتصت للحوار بين أمه وام ياسر ، والذي تشارك فيه زكية أحياناً
معلقة بكلمة أو اثنتين •

سألها خيرية :

- وماذا ستفعلين ؟

- سأذهب الى اخوتي في الشرطة •

- وتركين بيتك لهذه الغريبة ؟

- وماذا افعل ؟ انه لا يريدني •

وتدخلت زكية ناصحة :

- أم ياسر هذه رغبة ، ولا بد ان يتركها ويطلقها بعد شهر أو

شهرين •

واكدت خيرية :

- قول زكية صحيح •

وأضافت :

- ثم ان ابنك مريض ، وبقاؤه في الناصرية قريبا من الاطباء
أفضل .

وبدأت أم ياسر بمسح دموعها محاولة ان تمالك وهي تقول :

- حائرة والله .. حائرة .. هل هو صغير حتى يفعل ذلك ؟

رجل ابيض شعره ، واصبح يكبح ويضطرط .

وضحك عزيز في سره من هذا التشبيه ثم نهض ودخل الغرفة

ليرتدي ملابسه .

ربت خيرية على كفها مواسية :

- الرجل عندما يكبر .

ثم طلبت من زكية ان تأتيها بطاسة ماء . وعندما جلبتها تناولتها

من يدها ، وقربتها من فم أم ياسر قائلة :

- هيا اشربي وعودي الى بيتك .

تجمع الرجال في باحة منزل الشيخ علي ، يضيء مجلسهم فانوس نفطي وضع على مبعده منهم فوق صفيحة فارغة • وتلاأت جمرات النار في « المنقلة » التي تتوسطها « دلة » القهوة •

وكان زواج العريف مظهر موضوع حديثهم الاكثر حرارة ، فقد نقلت خيرية الخير الى زوجها منذ عودته من دكانه حيث علق :
 — وماذا يهم ؟ لقد أحل لنا الدين الزواج مشنى وثلاث ورباع ، ومظهر ما زال شابا •

فانبهرت زوجته ، وفجرت فيها أمام رده ، وتساءلت باستغراب :
 — أمكنا اذن ؟

فعاد صوت الشيخ علي ليؤكد :

- لم يقم بعمل حرام ، ولم يقدم على منكر ، تزوج على شريعة
الله ورسوله • ثم من أدرانا لم فعل ذلك ؟

وعادت خيرية لتقول :

- وزوجته وولده ؟

- هل طردهما ؟

- لا ، ولكنه ضرب زوجته حتى تورم جسمها •

- هذه مسألة لا تخصنا يا أم عزيز •

ولم تستطع خيرية مواصلة هذا الحديث مع زوجها • فأسرعت
وحملت إليه ابريق الماء ، وجلس على صفيحة فارغة مد ساقيه ،
وتركها تغسل رجليه وهي تهصرهما فيردد ملتذا :

- أوف ، الله يرضى عنك يا أم عزيز

- من لنا غيرك ؟

فسألها مداعبا :

- ولماذا تدافعين عن أم ياسر لهذا الحد ؟

- انها مسكينة وابنها عليل •

فضحك الشيخ علي مملنا :

- لاتخافي ، فبالنسبة لي لن أتزوج غيرك ، هكذا يقول

طالعي الذي قرأته قبل ايام •

* * *

وبدأت رشقات فناجين القهوة تتردد من افواه الجالسين وهم
حميد وهاتف وجبار •

أعلن حميد :

- زواج عريف مظهر أثار نائرة نساءنا •

وعقب الشيخ علي ضاحكا :

- حتى اختك أم عزيز •

وأضاف جبار :

- حتى غالية ، طلبت مني ان اقسم بالا اتزوج غيرها •

وساند هاتف اقوالهم :

- والدتي شتمت كل الرجال •

وواصل الشيخ علي قهقهاته وقال :

- الجنون حق على النساء ، سبرد رؤوسنا ان حدث لهن

ذلك •

واضاف منيا هذا الحوار :

- ان كيدهن عظيم • صدق الله العظيم •

* * *

كان هاتف قد تولى على عادته مهمة توزيع القهوة على

الجالسين ، وعندما حاول جبار أن يعينه في هذه المهمة قال :

- أصفر القوم خادمهم •

وكان المجلس يمعج بالضحك والسعال وأصوات الارتشاف .
وفي الجهة الأخرى من باحة البيت تجمع الأولاد وهم يتحدثون
بهمس . وكان بينهم عباس وكامل وياسر وكوثر ، وقد أحاطوا
بعزيز ليسمعوا أحاديثه ، عن مراحل الدراسة ، ولعبة كرة القدم
الأخيرة التي جرت بين فريق مدرسته وفريق آخر قادم من الكوت ،
وكانوا يصفون إليه بانتباه واعتزاز .

سأله عباس :

- هل الكرة ثقيلة ؟

فهز عزيز رأسه بالإيجاب . وكان تسأول عباس متأثراً من كونه
لم يلمس الكرة ، بل يراها على مبعدة وهي نهب لأقدام اللاعبين ،
ولم يحدث أن ضرب كرة القدم الكبيرة ، حتى زيارته للملاعب
كانت قليلة ، بعكس أخيه كامل الذي كان يملك مهارة خاصة بلعبة
كرة السلة .

أما فريق الزقاق فكرته من الخرق البالية الملقوفة بخيوط رقيقة
من القنب . وعندما يحدث وتغطس في الماء فأنها تصبغ ثقيلة جداً
لا أحد يطبق ركلها بقدمه الحافية .

وسألهم عزيز :

- لماذا لا تشترون كرة قدم جديدة ؟

فساءل الأولاد :

- وكيف ؟

- اجمعوا مبلغاً • كل واحد يدفع جزءاً من مصروفه ، وسنجمعه
عند الجدة زكية • واذا أصبح لديكم ديناران سأذهب الى السوق
واشتري لكم واحدة من مخزن التجهيزات •

سأله ياسر :

- مثل كرة المدرسة ؟

- تماماً •

- ها ، هل وافقتم ؟

وهزوا رؤوسهم بالايجاب • وأعلن عزيز :

- اذن ابدأوا من الغد •

* * *

واقترح الشيخ علي :

- هل تنادي على منظره ؟ ياسر هنا وسنطلب منه ذلك •

فأجابه حميد :

- فكرة لا بأس بها • ولكن أليس هذا حراما علينا ؟

- ولماذا الحرام ؟

- الرجل عريس في اسبوعه الاول •

- نريد ان نضحك ، الهموم كثيرة يا ابن عمي •

ولكنه أحس بأن اقتراحه لم يلق قبولا من الجالسين ، فقد

كان جبار مهموماً ولم يشارك بالحديث • وعندما اتبته هاتف الى

وضعه بسأله :

- لكن الهم جبار ساكت طيلة الجلسة ؟

وعلق الشيخ علي بمرح :

– انه هكذا منذ أن ترك الخمرة •

وعقب حميد :

– ترك الخمرة وحده لا يكفي • نريده أن يصلي معنا في جامع

الشيخ حسن •

ونطق جبار مفصحا عن همه :

– انني خائف •

وتساءلوا :

– وم تخاف؟

– لقد بدأوا ببناء الجسر الثابت كما تعلمون ، وطرردنا من العمل

بات وشيكاً ، وأنا أفكر ماذا أستطيع أن أعمل وانا في مثل هذه

السن؟

وصفني الشيخ علي برهة ثم قال :

– ابحث لك عن عمل •

– مثلا؟

– فراش في دائرة حكومية •

– ومن يتوسط لي حتى أجد مثل هذا العمل؟

– سيحلها الله •

– لا تفكر فلها مدير •

كان الجو ساخنا ومشحونا برائحة السمك الذي

ينشره سكان الزقاق في مثل هذا الموسم على جبال التسييل حتى يجب

جيذا ، ليكس بمد ذلك في أكياس ويحفظ طماما للششاء القادم

حيث يسلق معرؤوس البصل في طبخة خاصة يسمونها بـ «المسبوطة» •
وكانت تشكل الطعام الرئيسي لهم مضافا اليها التمر الذي يباع بأسعار
زهيدة في اكياس من خوص النخيل • وعندما يملأ الفقراء أجوافهم
بالسمك المجفف والتمر يمتلكون القوة آنذاك على العمل ومواصلة
الجهد •

قال حميد منها :
يا جماعة نسيت ان اقول لكم بأن مأمور البلدية قد جاء صباح

اليوم وهدد بقطع مواسير المياه عن الزقاق اذا لم نكف عن رش مياه
الضيل أمام بيوتنا • ارجوكم ان توصوا عوائلكم •

وعلق جبار :

— يلحقوتنا على مواسير الماء ؟

وعقب هاتف :

— نحن نتنظر منهم الكهرباء ويهددوتنا بقطع الماء ؟

وهز حميد يده وهو يقول :

— يفعلون كل شيء ، من يحاسبهم ؟

ثم نظر في ساعته بعد أن استلها من جيبه وأزاح غطاءها وقال :

— استأذن يا جماعة •

وسأله جبار :

— ما زال الوقت مبكراً ؟

— قرب موعد نوبتي في الحراسة ، واذا تأخرت دقيقة يقطعون

من مرتبي غرامة •

* * *

ثم خرج الى بيته، وبعد ان تناول بندقيته حملها على كفه وارتدى
في عتمة الزقاق .

وعندما أصبح في مدخل الشارع العام نفخ في صفارته فأجابه
صوت صفارة حارس ثان من نهاية الشارع ، وخطا كل منهما باتجاه
الآخر .

تبادلا التحية ، ثم توقفا برهة . سأله حميد :

- هل هناك شيء ؟

- الناس نيام والصلاة على محمد ، لكن اللصوص ينمون
أحيانا من ثقوب الجدران ، فعلينا أن نظل حذرين . لقد أوصانا
مأمور المركز أن نراقب التلاميذ الذين يقرأون تحت أنوار المصابيح ،
ألا تدري ؟

- لا ، والله .

ثم عاد ليتساءل باستغراب :

- ولكن لماذا نراقبهم ؟

- انهم يكتبون على الحيطان شاتمين الحكومة .

- صحيح ؟

- نعم . والبعض يوزع أوراقاً يسمونها منشورات يكتبون فيها
ضد الحكومة أيضا .

ثم افترقا بعد ذلك ، وترى حميد في مكانه متطلماً حوالبه •
استخرج كيس تبغ ، وبدأ بلف سيكارة • وعندما انتهى من ذلك
خطا نحو عمود كهرباء محاذ لدكان مطلق وأراح ظهره عليه •
على مقربة منه قطة تقضم قطعة عظم بصوت مسموع ، تأملها لشوان
ثم غرق في تأملاته وهو يدخن ويردد في سره :

- كيف أمسك بالتلاميذ وأرسلهم الى السجن ؟ كيف أفضل

ذلك ؟

ثم سحب جسده من وقفته ، وأخذ يخطو في منتصف الشارع
مدنناً بأغنية جديدة لحضيري أبو عزيز سمعها في أحد مقاهي
الصفاء •

القسم الثالث

الناس والمدینة

يمتد شارع الهواء عريضا ومستقيما من شرقي المدينة حتى غربها • تتوسطه حدائق مستطيلة زرعت ارضها بالدغل ، وتسامقت فيها أشجار اليوكالبتوس العالية • واحيطت هذه الحدائق باسيجة من الاسلاك الشائكة حتى لا ينفذ اليها الصبيان فيقطعوا زهورها • وفي شرقي المدينة تقع محلة الصابئة على حدود بستان عبود وبمحاذاة شاطئ الفرات ، اذ كان الصابئة هؤلاء لا يسكنون الا على ضفاف الانهار فكل طقوسهم وأعيادهم وعباداتهم لا تتم الا بالماء ، وهم يظنون ان الاواني والثياب لن تنظف الا اذا غسلت بماء حار ، وفي ليلة الزفاف يجب ان يفتس العريسان في الماء حتى لو كان ذلك في عز الشتاء •

وكانوا مزولين في هذه المحلة هم ودجاجهم وابقارهم
وطقوسهم الغامضة ، لا يأكلون من ذبح المدينة ، ولا يشربون من
لبنها . يملل رجالهم في الصباغة والحداة او في تزفيت المشاحيف
الصغيرة التي تستعمل في صيد السمك ، أو للعبور بين ضفتي النهر
في الاماكن البعيدة عن الجسر . وكانوا يطلقون لحاهم ويرتدون
اليشامنج الحمراء ، ويبيشون مسالين ومنقلقين على طقوسهم التي
لا يسبرها احد .

وبجوارهم يسكن اصحاب الجاموس ، ويطلق عليهم سكان
المدينة اسم « المدان » وهم يجهزون المدينة كلها باللبن والسمن
والقشطة .

أما في غربي المدينة فيقع المستشفى الكبير الذي بني حديثا
بعد ان هدم المستشفى الصغير الذي خلفه الانكليز على شاطيء
الفرات قبالة الجسر الخشبي .

وعلى امتداد شاطيء النهر بين الجسر ومحلة الصابئة تقع
بيوت الاغنياء من المسلمين وبعض اليهود . وقد وضع المهندس
البلجيكي « جولست لبي » مخطط هذه المدينة المصري عندما
استدعى لذلك واهتم بسعة شوارعها واستقامتها ، وجعلها تفرع
كلها من شارع الهواء الذي يشكل قلب المدينة .

أما التجار الذين يقطنون البيوت والقصور الكبيرة المحاذية
للنهر فهم ورثة الرجال الاوائل الذين قصدوا المدينة منذ تسيدها ، وكان
بينهم باعة وزراع وحاكة وشذاذ آفاق متمثلين بالتاجر اليهودي

« نعمة الله نعوم ، الذي بنى فيها اسواقا وخانات ومقاهي منذ ان رأى
السراي الحكومي الكبير يتوسط المدينة عاليا ومهيا .
وتحزم بيوت الفقراء المدينة من كل جهاتها ، وهي بيوت
طينية واطئة ، لها جدران من القصب ، في ممراتها يصكر المرض
والتحدي ، وعلى مشارفها يلعب اطفال حفاة في عيونهم البكر تموت
أحلام وتورق اخرى .

* * *

استيقظت المدينة ذات يوم لتجد عددا كبيرا من العمال
يقتلمون اشجار اليوكالبتوس التي تتوسط شارع الهواء ، وليمهدوا
الطريق أمام التراكتورات حتى تزيح الزهور والاشجار الصغيرة .
وتوقف الاهالي مشدوهين أمام هذا العمل الذي لم يكونوا
يتوقعونه .

وقال رئيس البلدية الذي كان يشرف بنفسه على العمل :

– لقد امر السيد المتصرف بهذا .

ويسأله رجل وجهه كان يراقب ما يجري :

– ولماذا؟

– بدأت المدينة تزدهم ، وما اكثر السيارات والمربات

والباعة .

ثم اضاف بعد ان ابتلع ريقه :

– هؤلاء ناس لا يستأهلون الحدائق . الاشجار يكسرونها

ليصنعوا منها حطبا ، والزهور يقطفونها ، فألى جهنم .

– قلع شجرة مثل قتل نفس .

- هذا كلام لا مكان له هنا .

ووجد بعض الماطلين واغلبهم من الفلاحين المهاجرين الى
المدينة فرصتهم في العمل بعد ان تسكعوا في اسواق المدينة طلبا لاي
عمل .

واكتب الشيخ علي ما حدث فقد كانت هذه الاشجار تأتيه
بالظل والهواء العليل يوم كان يفرش حصيرته على احد ارضفة
الشارع ، وكتبه مسطرة أمامه في انتظار من يأتيه .

- كلاب ، لا فائدة منكم ، تستكثرون علينا حتى الاشجار وهي
نعمة من الله .

أما حميد فلم يحتاج على هذا العمل ، وفي قرارته كان راضيا
عنه ، اذ كثيرا ما ينبهه زملاؤه بأن قسما من اللصوص يختفون
بين الاشجار متلصقين في انتظار الفرصة حتى يسلقوا اليبسوت
القريبة .

وبقي في داخله خوف مبهم منذ ان سمع بماضعه احد
المتصرفين برئيس الحراس عندما وجده نائما على احد مقاعد مقاهي
السوق وبنديته مطروحة على ركبته ، فما كان منه الا ان طلب مقصا
وقص شاربيه فكادت ان تحدث فتنة كبيرة في المدينة ، لولا تدخل
العقلاء حيث حلوا المسألة بسلام على الرغم من ان الكثيرين قد رأوا
في هذا العمل اهانة لشرف المدينة كلها .

* * *

كانت السماء صافية تماما وقد انقشمت عنها الغيوم التي خيمت فيها طيلة النهار بعد ان ألقت كل أحمالها فاغرقت الارض وانهارت جدران العديد من البيوت الطينية ، ولم تقاوم سقوطها قوة المطر .

وعند الظهيرة خرج اطفال الزقاق وتجموا واقفين وهم يتحدثون عما حل ببيوتهم . وكان بعضهم يحمل طعامه بيده وهو رغيف من الخبز مطلي بالدبس او السمن ، او ملفوف على بعض الخضروات كالحلباء والرشاد والفجل ، يأكلون بتلذذ وصوتهم يلطمع في المكان . وكان بينهم عباس وكامل وياسر الذين منهم المطر عن الذهاب الى المدرسة .

• قال عباس مذكرا

• - سيضربنا المدير

واعترض ياسر :

• - يعرف انا انقطنا بسبب المطر

وعقب كامل على قوله :

• - لن يقتنع بهذا العذر ، اتذكرون يوم قال ان علينا الحضور

حتى لو امطرت رصاصا ؟

وهز عباس كتفيه بلا مبالاة .

• - ماذا يريد ان يفعل بنا اكثر من عشر ضربات بالخيزرانة على

اليد ؟

ثم فتح يده ومدها ليربها لاصحابه بزهو ويقول :

• - انظروا ان يدي قوية ولا تأبه للضربات

ومد يأسر يده الصغيرة الصفراء وقال بدعابة :

– اما يدي فستكسر بضربة واحدة •

وضحك كامل وهو يقول :

– لن يضربك وبيتلي بك •

• وشاركه الجميع بالضحك ، ومن ثم واصلوا قضم ارغفتهم •
وبعد فترة سألهم عباس :

– من يأتي معي لنرى الرعاة الذاهبين الى البر ؟

واعترض ياسر :

– لديهم كلاب شرسة ، أخاف ان تمضنا ؟

– انها تخاف منا •

ثم اضاف وهو يحك رأسه :

– وسنسرَق حملا صغيرا أو جرّوا •

وقال كامل :

• – الكلاب لا ، أخاف ان يصبح مكلوبا مثل كلبنا طرزان •
وزرع رد كامل غصة مفاجئة في صدر عباس ، فقد كان يمز كلبه
ذاك الذي جاء به بعد ان خلفه الرعاة المهاجرون الى البر وكان
صغيرا عاويا من الجوع والبرد •

واخذ يطعمه حتى كبر ، وعند ذلك اكتشفوا انه كان اتني ،
ومع هذا فقد ظل يحمل اسم طرزان ولم يرتض عباس استبداله بأخر ،
واخذت الكلاب تطاردها ، وبدأت تغد على الزقاق كلاب غريبة ،

وقد أصيبت بالكلب اثناء حملها ، فاضطر حميد الى قتلها ، اغمض
عينه وضربها بالفأس على رأسها ضربة واحدة افقدتها الحياة • وقد
حزن عباس حزنا كبيرا ، وعينا حاول والده ان يقنعه ما مفضى ان
يكون الكلب مكلوبا •

* * *

عاد عباس يتساءل :

- مارأيكم؟ هل نذهب؟

ولم يجد اقتراحه قبولا ، ولكنهم بدأوا بالتحرك باتجاه مدخل
الزقاق ، وعندما وصلوا الى هناك ظلوا يراقبون العائدين وهم يحملون
احذيتهم بأيديهم ويخوضون في برك المياه التي خلفتها الامطار حفاة •
واستمر الاولاد في ضحكهم ولهوهم • وكلمنا رأوا عابرا
يتزحلق في الوحل ويسقط على وجهه يصرخون :
- ها، اصطاد سمكة •

وبان التعب على وجه ياسر من كثرة الضحك والوقوف ، ولم
يستطع المواصلة مهم • واخذ يكتفي بابتسامة مطفأة يحاول ان
يستبقها على وجهه برهة من الوقت •

وخرج جبار من المنطف ، كان مخمورا الى درجة كبيرة ، وقد
رفع أذبال دشاشته ودسها في حزامه الجلدي المريض الذي
يشبه احزمة الجنود ، وكانت ثيابه وساقاه قد تمفرت بالوحل لكثرة
ما سقط على وجهه • وكان حافيا وحاسر الرأس فقد اضاع نعليه
وسترته وطاقيته • وكان بمض الاطفال يخوضون في برك المياه مصفقين
وراءهم مرددين كلمات نايبة اعتادوا اطلاقها في مثل هذه المناسبات •

وكان يلتفت اليهم بين فترة واخرى ليرجمهم بحفنة من الطين
يلتقطها من الارض بصموبة •

واتجهت انظار العابرين اليه ، وخرج بعض النسوة والاطفال
من ابواب بيوتهم لينظروا اليه بفضول • وعندما وصل الى رأس
الزقاق فر الاولاد راكضين الى بيوتهم اذ كان مظهر السكران
يخيفهم ، وما زالت حالة السكر لديهم تصثل نوعا من المجهول لا يعرفون
كنهه ، واحكموا غلق ابواب بيوتهم ، ولكنهم استمروا في مراقبته من
شقوق الابواب ، وتسلق البعض الحيطان او سطوح البيوت •

واخذوا يميزون صوته وهو يصرخ بشمالة :

- ماذا فعلتم؟ جسر جديد؟ تف •

ويسقط على وجهه ، ثم ينهض ببطء مستعينا بالحائط الموحد ،
ويعود للصراخ •

- ناس فقراء ••••• نأكل خبزنا •• لماذا تطردونا ؟

ويحاول أن يحرك قدميه وفمه لا يكف عن الصراخ :

- من قال لكم ابنوا جسرا جديدا؟ من؟ الجسر الخشبي يكفي

لنا •• يكفي ••

ويتوقف برهة ليسترد انفاسه ، وينظر الى الزقاق الغارق بالماء

والوحد وينادي :

غالية .. أم غليو .. طردوني .. ماذا نأكل ؟ الجوع
سيقتلنا .

ثم غرس وجهه في وحل الحائط واخذ بيكي .

* * *

خرج هاتف من بيت حميد تبعة نجية وهي تحمل طفلتها بين
ذراعيها ، وعندما رأى الناس متجمعين قصدهم فوجدهم ينظرون الى جبار
بفضول . وقد كف الاولاد عن الصراخ والتصفيق .

أمسك هاتف بجبار من يده ثم قاده وهو يتمتم معاتبا :

- أهذا وقت سكر يا جبار ؟

واستسلم جبار واخذ يمشي معه وهو يردد بكاء :

- عيني هاتف طردوني من الجسر ، قالوا لاحاجة لنا بك ،
انت عجوز ، والجسر الحديدي يعمل بدون جسارين ، يعمل على
الكهرباء ، عيني هاتف .

- لكن السكر لا يحل المشكلة ؟

وعندما اوصل جبارا الى بيته خرجت غالية صارخة وهي تلطم
وجهها :

- وجهك أسود يا جبار ، لم تجلب لنا غير الخزي والعار بين
الناس .

- طردوني أم غليو .. طردوني ..

- ألم تحلف بأن لا تمود للسكر بعد؟

- مصيبة .. أم غليو ..

وواصلت غالية صراخها ، ثم التقطت حفنة من الطين وغفرت به

• جينها •

- الله ينتقم منك .. الله ..

وكم هاتف فيها وادخلها الى البيت وادخل جبارا ورامها ، ثم

أطبق الباب •

صحا سكان الزقاق على صياح امرأة أعقب آذان الفجر بفترة
 قصيرة من الزمن • وعندما خرجوا من أبواب بيوتهم مهرولين
 عرفوا ان مصدره بيت العريف مظهر •
 - مات ياسر •

هكذا انطلق الخبر بعد ذلك ، وخرج العريف مظهر الى
 الشارع صارخا ولاطما وجهه •
 وعندما رأى حسنة تدب لاهثة باتجاه بيته بادرها قائلا بصوته
 المفجوع :

- لقد مات ياسر يا أم عباس •
وعاد ليضرب على جبهته براحة يده وهو يصرخ •
- ياسر ابني •• وجدي •
فقال حسنة بألم :
- اذكر الله يا أخي ، ماذا يدنا على انفسنا ؟
واعقبت حسنة نساء اخريات بينهن أم هانئ وغالية وزكية
وتضخمت جوقة الصراخ واللطم •
وحضر الشيخ علي بعد ان فرغ من صلاته ، وادخل المريرف
مظهر الى بيته وهو يردد :
- لا حول الله ولا قوة الا بالله •
- ماذا افعل ؟ ابني الوحيد ؟
- يريد الله ان يمتحن ايمانك فطيك ان تمالك •
وانضم اليهما حميد فور عودته من نوبة الحراسة ، وجاء جبار
ايضا ، وارسلت نجية عباسا لينادي زوجها الذي كان يعمل في بناء
بيت على شاطئ النهر •
كما تجمع اصحاب ياسر من أبناء الزقاق ، وكلهم ذاهلون لا
يعرفون كنه الموقف ، وأي سر يحمله ، كانت عيونهم تهمي بدموعا
والما صامتا ، وهم يتطلعون الى النساء اللواتي احطن بجثة الفقيد
نادبات بأصوات تذيب القلب •
وتسأل كامل :
- الا يعود بعد ؟

وهمس له عزيز : .

• اسكت .

وجرت المراسيم بسرعة ، ومن ثم حملت الجثة في سيارة خشبية كبيرة امتلاؤها بالمشيعين من النساء والرجال ونقلت لتدفن في مقبرة السيد خضير في الجانب الاخر من النهر .

* * *

وتوافد على بيت العريف مظهر كل سكان الزقاق ، والازقة القريبة ، وكذلك بعض افراد الشرطة ، وقسم من اقربائه القادمين من قريته الواقعة على مشارف المدينة ، جاؤوا كلهم لحضور مجلس الفاتحة .

وقد ترك الشيخ علي عمله وظل جالسا مع مظهر طيلة أيام الفاتحة الثلاثة .

وفي اليوم الثالث أسرَّ العريف مظهر للشيخ علي :

• أبا عزيز ، سأذهب غدا واقدم استقالتني من الشرطة .

واستقرب الشيخ علي من قراره :

• ولماذا تستقيل ؟

• انني اشم يوما عشرات المرات ، واخاف ان يشتموا

المرحوم .

وقرأ الشيخ علي في عينيه ضراعة خرساء يفجرها احيانا بدموع

تنساب من مآقيه .

• وماذا ستفعل ؟

- سأبيع بيتي ، قبل أيام دفعوا لي مائتي دينار • سأشترى قطعة ارض في الجهة الاخرى من النهر أبني فيها بيتا صغيرا وبما يتبقى أبني دكانا •

وحملق فيه الشيخ علي وعيناه تطوفان ، ووجد كفيه قدتهدتنا من الهم وثقل المصاب ، وسأله :

- ولم العجلة ؟

- أرى المرحوم في كل مكان من البيت ، وامه كذلك • انها كالمجنونة وتصرخ ابعديني عن هذا المكان •

وردد الشيخ علي مدعنا :

- ما دامت المسألة بهذه الصورة فلا أحد يستطيع ان يمنحك ، مع انه يمز علينا ان نفارقك • لقد اصبحت واحدا منا •
- البعد بعد القلوب يا أبا عزيز •

ثم راح الشيخ علي يتأمل باحة البيت وهي تنوء بالسبخ ، وقد تآثرت فوقها أعقاب السيكاثر التي خلفها المعزون وقال :

- سأكتب لام ياسر تمويزة مهدئة •

واضاف وهو يلم عباته ويدفمها على كفه :

- اصحك بأن ترسلها لزيارة الحسين •

- ومن يذهب معها ؟

- ليست هذه مشكلة •

ووجد العريف مظهر اقتراح الشيخ علي مناسبا •

* * *

توقف رجل قصير ، يرتدي دشداشة كالحة ، وسترة جديدة
بعض الشيء ، أمام دكان الشيخ علي وسلم عليه • فرد الشيخ علي
على تحيته •

ودلف الرجل داخل الدكان ثم جلس على احد الكراسي
المخصصة للزبائن وقال فجأة :

- اسمع ياشيخ علي ، اريد ان انبهك لمسألة واحدة •

ورفع الشيخ علي عينيه وقد صعد الدم الى وجهه •

- خير ان شاء الله ؟

- هاتف

- مابه ؟

ورن صوت الرجل في المكان وهو يقول :

- هاتف ياشيخ علي يشتمل بالسياسة ، ونحن ندرى بذلك •

وازداد القلق على وجه الشيخ علي وهو يخمن المغزى من كلماته ،

فالرجل لا بد وان يكون احد افراد الشرطة السرية الذين يرتدون

ملابس مدنية عادة ويندسون بين الناس وربما يمارسون مهنة من المهن

حتى يتصيدوا الناس في اقوالهم وافعالهم •

- هكذا نحن نبدأ بنصح العقلاء من اقارب المشتبه بهم ، وان

لم يرتدعوا نعرف ماذا نعمل •

وتوقف عن الكلام قليلا وهو يلهث ، بينما اخذ الشيخ علي

يتطلع اليه بعينين زائقتين •

- ولكنني لم اسمعه يتكلم بالسياسة لا من قريب ولا من بعيد؟

وهز الرجل كفيه باستخفاف وهو يفهمه :

- وط حاجته لان يكلمك بذلك ؟ وهو يعرف أنك رجل لاهم لك
الاقراءة البخت وكتابة الادعية ، كما ان والد زوجته رجل فقير همه
حراسة البيوت .

وراح صدر الشيخ علي يعلو ويهبط وقال بوقاره المهود :

- الا يحتمل ان يكون هناك سوء فهم ؟

وعبس الرجل من هذا السؤال ، ثم نهض وهو يقول بحسم :

- نحن لا نخطيء ابدا ، أفهمت ؟

٣

بدأ جبار حياة جديدة ، فقد باع نصف بيته الى هادي الفراش
في المدرسة الثانوية ، وهكذا اضيفت الى سكان الزقاق عائلة جديدة ،
مكونة من الاب والام وابنتهما نهلة التي تخطى عمرها السنة الثانية
عشرة •

واشترى جبار بالثمن مقهى صغيرا في الصفاة قريبا من دكان
الشيخ علي •

- يجب ان توكل على الله وتبدأ •
- هذا ما قررته يا شيخ علي ، المهم ان لا أمد يدي للناس
مستجديا •

واخذ يعتمد في تصريف شايه على اصحاب الدكاكين وباعة
السك والخضروات الذين تنص بهم باحة الصفاة •

* * *

وبعد ان نجح جبار في عمله الجديد اخذ يردد أمام الذين
يعرفونه •

- لعنة الله على الجسر ومن بناه •

ثم يضيف :

- أقسم بالله انني لن اعبر فوقه مادمت حيا ، وان اصبحت لي
حاجة في الجهة الاخرى من النهر سانزع ثيابي واعبره سباحة •
فيضحك جلاسه ويقولون :

- انك عجوز وستغرق في المتصف ؟

- الى جهنم ، المهم ان لا أرجع عن قسمي •

وكانت غالية اكبر الفرحين بهذا التحول • وبدأت تسوزع
النور الى سيد خضير وفوادة والمجاهيل وكافة الاولياء الذين تمتلي •
بهم المدينة وضواحيها •

وذهبت ذات يوم مع أم هاتف الى سيد خضير حاملة طاسة من
الحناء ، وحتت به باب ضريحه ، كما ثرت كيسا كبيرا من الحلوى
هناك •

وابتهلت أمام الضريح طالبة منه بجاهه عند ربه ان لا يعيد زوجها الى الخمرة ، وقد ازدادت فرحتها عندما قرأها الشيخ علي طالمها واخبرها بأنه لن يعود الى الخمرة مطلقا . ولن تستقر في فمه قطرة منها ، كما اخبرها بأنها ستزور قبرا مقدسا ، قبر الامام علي او موسى الكاظم او علي بن موسى الرضا في ايران ، وربما ستذهب الى الحج وتزور بيت الله .

واخذت تهمس أمام نساء الزقاق :

- ان مجيء بيت هادي الى جوارنا بركة .



كانت زوجة هادي خياطة ماهرة ، تكنفي بربيع دينار ثمننا لخياطة الفستان ، ولم تمض فترة طويلة حتى اصبح لها زبائن من نساء الزقاق والازقة المجاورة ، واخذ بيتها يمج بهن .

وارتبط هادي مع حميد والشيخ علي بصدقة عميقة ، واخذ يحضر مجلسه في أغلب الاوقات حيث يحدث الجالسين عن تلاميذ الثانوية المشاكسين ، وكيف يشتمون الحكومة بأعلى اصواتهم دون ان يخافوا من شيء ، ويحدثهم عن الكلمات التي يكتبونها على السبورات ، والمدير الذي يطلب منه ان يمسحها قبل ان يغادر المدرسة .

أما ابنته نهلة فقد بدأت تميل الى عباس ، ترسل له دفاتر الحساب ليحل المسائل ، أو تطلب منه ان يكتب لها موضوعا في الانشاء ، وقد استقبل عباس طلباتها بحبور .

وذات يوم قالت له :

- لماذا لا نلعب لعبة العريس والعروس ؟

ولم يفهم عباس ما تعنيه • وسألها :

- وكيف ؟

قالت شارحة له :

- أنا اجلس في مكان واغلق الباب وانت تفتح الباب وتدخل

علي •

وتخللت صوته رنة زعر وهو يتسائل :

- واين هذا المكان ؟

وتلفتت يمنة ويسرة بحثا عن مكان ، فالغرفة الوحيدة في البيت

تشغلها امها مع زبوناتها • وانتبهت الى المرحاض ، و اشارت بيدها :

- هناك •

فجفل باديء الامر من اختيار المكان ، ونظر اليه بطرف عينه ،

والى ستارة القماش الرخيص التي تدلت لتغلق بابه ، واذعن لها وهي

تعوده من يده ، وواقفته قرب الباب ، ثم أزاحت الستار بيدها ودخلت •

وبعد لحظات نادته :

- هيا ، ادخل •

وعندما دخل وجدها تستند الى الجدار وهي واقفة • وقصد

رفعت ثوبها الى اعلى ،

- لا تخف ، تعال •

ولكنه انسحب خائفا ، فلحقت به •

وذات يوم قالت له :

- لماذا لا نلعب لعبة العريس والعروس ؟

ولم يفهم عباس ما تعنيه • وسألها :

- وكيف ؟

قالت شارحة له :

- أنا اجلس في مكان واغلق الباب وانت تفتح الباب وتدخل

علي •

وتخللت صوته رنة زعر وهو يتسائل :

- واين هذا المكان ؟

وتلقت يمنة ويسرة بحثا عن مكان ، فالغرفة الوحيدة في البيت

تشغلها امها مع زبوناتهما • وانتبهت الى المرحاض ، و اشارت بيدها :

- هناك •

فجفل بادىء الامر من اختيار المكان ، ونظر اليه بطرف عينه ،

والى ستارة القماش الرخيص التي تدلت لتغلق بابه ، واذعن لها وهي

تقوده من يده ، وواقفته قرب الباب ، ثم أزاحت الستار بيدها ودخلت •

وبعد لحظات نادته :

- هيا ، ادخل •

وعندما دخل وجدها تستند الى الجدار وهي واقفة • وقد

رفعت ثوبها الى اعلى ،

- لا تخف ، تعال •

ولكنه انسحب خائفا ، فلحقت به •

- لماذا هربت ؟

- خفت •

- مني ؟

- أخاف ان ترانا أمك ••

ثم ابتلع ريقه بصعوبة • وعاد ليسألها بانشداء :

- من علمك هنا ؟

- اتني أرى أمي وأبي يفملانه •

وصفن برهة مفكرا فيما قالته • ان والديه يفملان ذلك ايضا •
ولكن في الظلام، وكل الذي يتذكره لهاك أمه المنتشي وفحيح أبيه • وغالبا
ما يختبئ تحت الغطاء باحثا عن تفسير لهذا العمل • ولكنه رغم خوفه
كان ممثلا بلذة غريبة ممتزجة بالخوف والمجهول ، وود ان يعاود
الكرة معها •

ونطق مؤكدا :

- سنفعل ذلك في بيتنا •

- ولكن أمي لا ترضى ان اذهب الى بيتكم •

- ولماذا ؟

- تقول ان ليس لديكم بنات في مثل سني •

* * *

أما كامل شقيق عباس فقد اخذت حياته منحى اخر اذ بدأت
ارشادات والده وملاحظاته عن الدين واليوم الاخر تجد صداها في
نفسه ، وتجدرت اكثر بقراءاته الدينية ، واخذ يؤدي الصلاة في

أوقاتها ، وبعد ان شيد جامع الشيخ حسن أصبح يؤدي صلاة الجمعة فيه . وعندما تنتهي الصلاة كان يتأخر لينصت الى خطبة الشيخ وهو يحذر فيها من الكفر وعدم اطاعة أوامر الله . وقد جملة وضعه الجديد يتعامل مع هوايته الاثيرة في كرة السلة بفتور رغم الحاح مدرس الرياضة الذي يرى فيه لاعبا واعدا فهو يمتلك عدة صفات تؤهله لذلك منها طول قامته ونحافتها ، وسرعة حركته وقدرته على تصويب الكرة نحو الهدف ، ولكنه كان يجد الامان والهدوء في الصلاة وتلاوة القران .

وعندما التقى بمجموعة من الطلبة الذين يدعون لاجياء الدين واداء الصلاة والنهي عن المنكر آمن بهم، وكان لديهم مجموعة من الكتب التي يتبادلونها وكلها تدور حول الدين وحياة الاولياء والصحابة . وبينها كتب عن سعد بن أبي وقاص ، وآمنة بنت وهب ، وبلال الحبشي ، وابي بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب وغيرهم .

وقد غرق كامل في قراءة هذه الكتب ، الى جانب كتب اخرى يستميرها من مكتبة عمه الشيخ علي ، دون أن يتقطع عن قراءة القرآن ، وكان أبوه فرحا به فيحس انه يعوضه عن كل تخلف لفروض الدين التي لم يسغه الوقت لادائها .

* * *

اشترى بيت العريف مظهر رجل يعمل في تجارة الاغنام . وقد هدم البناء القديم وشيد بيتا حديثا من الطابوق ، واستخرج من واجهته دكانا صغيرا سرعان ما استأجره رجل في الاربعين من عمره يدعى

ياسين ، ملاءة بالحلوى والشاي والسكر والسيكاثر واللوازم المدرسية ،
كما علق فيه لافتة صغيرة تقول • مستعدون لتجليد الكتب المدرسية •
وكان ياسين يضع على عينيه نظارة سوداء ، لم يشاهد احد سكان
المحلة عينيه بدونها فقد كان يبقيا فوقهما حتى الليل •

وقد دفع الفضول سكان الزقاق لان يبحثوا عن السر في هذا ،
وارجموه الى عدة اسباب وافتراسات كأن يكون اعورًا مثلا •

ولكن ياسين لم يزحها يوما حتى يريحهم ويقتل فضولهم ،
كما انه لم يفتح على السكان ، ولم يحاول الاختلاط بهم ، رغم
انه كان ينام في دكانه ولا يفادره الا لاما لا يتباع ما ينفد من
حاجيات فيه ، ولو لا الختم الذي كان يضعه على اغلفة الكتب
التي يقوم بتجليدها والذي يحمل اسمه لما عرفه احد •
حتى التبول كان يقوم به داخل دكانه وفي قنار فارغة يحتفظ بها
في القسم الخلفي منه ، وعندما تمتلئ جميعها يفرغها في مجرى
الماء الذي حفره عمال البلدية لتصريف المياه الوسخة •

وعند تفرغها تملأ المكان رائحة البول المعطنة ، فيضع
العابرون ايديهم على انوفهم ويمبرون مسرعين •

واخذ السكان يراقبون يوم التفرغ هذا حائرين دون ان يجدوا
له تفسيراً وقد حسمت أم هاتف الموضوع عندما اعلنت :
- ان بمقله مسا ، الله يبعثنا عنه •

وقد ايد الشيخ علي قولها • الا ان الجميع اعتادوه بمرور الايام
ولم يعد يثير فضولهم ، كما انهم اكتشفوا انه انسان طيب ، لم يسء

الى احد ، ويبيع من يشاء بالدين حتى نهاية الشهر ، وقد اعد سجلا
باسماء الدين يستدينون منه مع قائمة المواد التي يشترونها وتاريخ
الشراء .

لكن الشيخ علي عرف ذات يوم عن طريق احد اصدقائه انه
كان متتيا لاحد الاحزاب الحكومية بحثا عن منصب وجاء ، ولكنه
لم يحصل على شيء اذ زاحمه العديد من الوصوليين ، فانكفاً الى
الداخل ، واخذت دائرة حياته تضيق بوقاة والدته التي كانت المتبقية
الوحيدة من عائلته . وبوفاتها انقطعت علاقته بالآخرين ، واخذت
حياته هذا المنحى الغريب .

* * *

نطق هاتف وهو يهز رأسه مؤكدا ما سمعه الشيخ علي من
شرطي الامن :

- ما سمعته منه صحيح .

وقال الشيخ علي محذرا :

- انني احترمك يا هاتف واعزك ، وكنت أول من شجع حميدا
على قبولك زوجا لنجية . ولكن عليك ان لا تتماذى وان تحسب
لعائلتك حسابا .

- لانسي لا ارتضي لعائلتي ان تعيش الكفاسف عملت في
السياسة ، اسمع يا عمي هذا وطننا ونحن اهله ولسنا سائحين فيه
سرعان ما تغادره .

وبعد برهة من الصمت المتحصر اضاف :

- كثيرون ينقصهم الوعي بذلك . ويجب ان تنبههم للحالة
التي هم فيها ، واذا ارادوا ان يمتقلوني فليست افضل من اولئك الذين
تمتلي بهم سجون العراق .

- كل شيء واضح ، لا تقل بأن عمك الشيخ علي لا يعرف ،
انني اقرأ وأطلع والتقي بناس ، ومرت علي كل الاحزاب ، استطع
ان احدثك عن اصغر الامور في تاريخ الناصرية .

ثم اعتدل في جلسته بعد ان تناول شايه من يد زكية ووضع
على ذراع الكنبه وبدأ يخوطه بسرعة ، ونظر الى هاتف وهو يتناول
شايه ايضا ويظل محتفظا به في يده بينما أسند كوعه الى ساقيه
الطويلتين المدوتين أمامه .

وتابع الشيخ علي البوح بعد ان خرجت زكية :

- انها لعبة الانكليز ياولدي ، نوري السعيد ، أو صالح جبر ،
أو غيرها ، أرادوا بديلا عن نوري السعيد عندما يعجز عن تنفيذ
سياستهم فجاؤوا بصالح جبر وهكذا .

وهز هاتف يده بسخرية عندما سمع بالاسم الاخير :

- صالح جبر هذا ابن نجار فقير من مدينتنا ، يخون طبقته
واتمناه ويصبح أداة بيد الاعداء . . تف .

وابتسم الشيخ علي بانسراح وهو يربت على كنف هاتف
ويهمس له :

- لا أدري هل أملك الحق في عتابي لك ، ولكنني مع هذا
تحدثت فلا تؤاخذني ان كانت في حديثي هفوة .

خرج عباس من بيته وجلس على دكة الباب • وبيده رغيف ساخن مطلي بالسمن وقد رش فوقه قليل من السكر • واخذ يقضم الرغيف بالتذاذ وهو يرقب الماء الوسخ في مجراه الصغير وسط الزقاق •

وكان بعض الصبية يلاحق مجرى الماء وهو يحمل الزوارق الورقية التي تصنع من الدفاتر المدرسية •

وكانت الشمس تلهت فوق هامات البيوت الواطئة لتجفيف الرطوبة العالقة بها • وقد خوص عباس عينه أول مرة عندما استقبل النور ، ولكنه ألف المنظر بعد ذلك وظل يراقب ما يجري أمامه •

أما سكان الزقاق فقد انشغلوا انذاك بتناول غدائهم ، وبقى
بعض الرجال في جامع الشيخ حسن لاداء صلاة الظهر وسماع
خطبة الجمعة •

التفت عباس الى اليمين فوجد نهلة مستندة الى الجدار وهي
تضع يدها على جبهتها حتى تستطيع ان تتأمل الزقاق دون ان يبهـر
عينها نور الشمس • ونادىها بصوت هامس :
- نهلة ، نهلة •

وعندما سمعت صوته جرت قدميها نحوه ببطء وصعوبة اذ
كانت تتعل قبقابا خشبيا يعود لامها •

وتوقفت جواره ، تأملها عباس بطرف عينه فبان له الفتق في
ثوبها والذي اظهر قطعة سمراء صافية من لحم كنفها • وكان وجهها
المدور يبدو اكثر فتنة وهو مسور بشعرها الداكن الذي تطايرت
خصلاته مع حركة الهواء في جوف الزقاق •
وسألها :

- ما بك ؟

- أمي ضربتني وشتمتني ، تريدني ان أغسل الثياب •
ثم جلست على دكة الباب جواره وهي تمسح عينيها بكمها •
وبانت على وجهه ابتسامة ودودة وهو يقول لها :
- لا داعي للبكاء •

ثم اقتطع قسما من رغيفه وناولها لها •

- هاك ، كلي •

فترددت أول الامر لكنها سرعان ما أذغنت لصوته الأمر

واخذته منه وبدأت تأكل بتسهل •

سألها :

- أين أبوك ؟

- في المدرسة •

وسألته هي بعد ان ظل صامتا :

- أمك في البيت ؟

- نائمة • انها مريضة كما تعلمين •

- وابوك ؟

- في الجامع هو واخي كامل •

واقتربت منه اكثر حتى تلامست كنفاهما ، وواصلت طرح

أسئلتها :

- ومتى يعودان ؟

- بعد الصلاة والخطبة •

ورددت بفرح وهي تمض شفتها :

- سنلعب عندكم •

وهب متسائلا :

- العروس والمريس ؟

وهزت رأسها بالموافقة • أمسك بمعصمها وقال :

- سأدخل قبلك ، وعندما أوثر لك يدي تبعيني •

ثم وقف برهة وكأنه يفكر بشيء آخر • لكنه تحرك بعد ذلك
ودخل البيت •

مد رأسه في الغرفة ، فوجد أمه مازالت نائمة وفجیح صدرها
يتعالى •

وخرج ثانية على اطراف اصابعه حتى لا تستيقظ ، واثار يده
فدخلت نهلة ماشية بتأن وعلى اطراف اصابعها هي الاخرى وكانت
تحمل قباقبا بيدها الى السقيفة التي تستعمل لخزن الحطب والتمور
والحبوب والسمك المجفف • ولحقت به • وجلسا على الارض
مرتجفين ، وظلا برهة يتأمل احدهما وجه الآخر • ثم تعانقوا
بحرارة ، وظلا يلهثان دون ان يعرفا ماذا يفعلان بعد •

وصحت حسنة على صوت خشخشة الحطب تحت اقدامهما
وصاحت :

- عباس ، ماذا تفعل ؟

فنهض مذعورا وهو ينفض ملابسه من فضلات الحيوانات
الجافة التي علقت بها ، وردد بتلعثم :

- لا شيء يا أمي •

وعاد صوت حسنة المجيش بالاعياء يتساءل من وسط
الغرفة ؟

- ما هذه الضجة اذن ؟

- انني ابحت عن كعابي •

وكانت نهلة ترتجف مذعورة ، وقد تجمدت في مكانها دون حراك فأقترب منها حتى لفحت انفاسه وجهها وسألها :

- استطيعين ان تقفزي الجدار الى بيتك ؟

وتأملت الحائط الطيني وهو يميل من اعلاه وكأنه على وشك السقوط ، واختلج صوتها من التوتر والانفعال وهي تتمم :

- لا أدري •

- اصعدي على ظهري وعندما تصبحين فوق الحائط أقفزي انظري انه واطي ••

واخني جذعه جوار الحائط فصعدت عليه بخفة • ومدت رأسها متأملة بينها • كانت باحته فارغة ، وصوت ماكئة الخياطة يتناهي من الغرفة • تشبثت بأطراف الجدار بقوة ثم سحبت جسدها بتؤدة حتى اصبح فوقه ، بمد ذلك قفزت بخفة الى الجهة الأخرى ، ورمى قباقبها وراءها وهو يقول لنفسه :

- الله سترك يا عباس ، أملك مصيبة المصائب لو عرفت ماذا

كنت تصنع !

وبدأ يبحث عن شق في الجدار ليطمئن منه عليها ، ولكنه

عجز عن ذلك •

وعندما خرجت امه من غرفتها وجدته منهما في النظر من
الشقوق فصاحت به :

- ماذا تفعل؟ الا تستحي؟

• ووقف مرتبكا لا يسمعه رد •

- لماذا لا تتكلم؟

- لديهم دجاجات جميلات •

والتقطت حجرة رمتها بها وهي تصرخ مجهدة :

- أهلك لا يتجسسون على بيوت الاشراف ، من اين جئت

انت؟

وارتصف على الحائط متمللا :

- والله لم أفعل يا امي ، والله •

ودخل حميد انذاك يتبعه كامل ، وتساءل عندما رآهما :

- ما الذي حدث؟

فغيرت حسنة وجهة الحديث وقالت :

- طلبت منه ان يعطيني طاسة ماء ولكنه امتنع •

• واسرع كامل الى الكوز وملأ الطاسة ثم حملها الى امه •

- خذي •

• وتناولتها بعد ان قبلته على خده •

– الله يرضى عنك يا ولدي •

ولم يثر حميد كعاداته من شكوى حسنة فكأن أداء الصلاة وسماع خطبة الجمعة قد امداه بالهدوء الذي يصعب اخراجه منه • وأقرب من عباس وقاده من يده الى داخل الغرفة وهو يقول مهدئا روعه :

– اليوم جمعة يا ولدي ، والصلاة على محمد وآله ، وهو يوم خير وبركة فيجب ان تساعد امك وتخدمها لانها مريضة ولا قدرة لها على الحركة •

وعندما وضعت سفرة الطعام وتجمعوا حولها ليلتهموا الخبز المترود بماء الطماطة ، مع كمية من السمك الصغير المشوي ، واللبن الرائب ، كان حميد يبسل قبل كل لقمة ، ويحمد الله على الستر والعافية ، ولا ينفك عن ترديد النصائح التي حفظها لكثرة ما سمعها من رجال الدين والخطباء الذين كانوا يتوافدون على قريته « ابو هاون » في أيام عاشوراء •

وقال لعباس حاسما كلمات النصح :

– رضاء الله من رضاء الوالدين يا ولدي •

وضجر عباس من هذا الجو الثقيل ، وكاد ان ينص بلقمتيه عدة مرات • وكان فكره محصورا في نهلة ، وهل حدث لها شيء عندما رمت بنفسها من فوق الحائط •

وبعد ان انهى تناول طعامه خرج الى الزقاق • وكانت الحياة
قبد بدأت تدب فيه من جديد ، وكرر عدد الاولاد اللاعيبين
بزوارق الورق • ومشى باتجاه بيت نهلة وتوقف على مقربة منه •
وعندما واته الفرصة فتح الباب قليلا وتطلع الى باحته فرأى نهلة
جالسة على الارض ومن حولها القدور والاوناني وهي منهمكة
بغسلها • وقد ازاحت اطراف ثوبها الى اعلى حتى لا يبللها الماء ،
فبدت ساقاها السمرراوان جميلتين وفاتنتين •
أطبق الباب ثم قفل عائدا الى بيته وهو يتنفس بارتياح •

•

انتهت مراسيم ختان عباس وكامل ، وقد ختن معهما يتيان
للثواب • واستسلم حميد اطقوس الفرح وسمح لها ان تأخذ مداها ،
فجلب مضمدا ذا بدلة بيضاء ناصعة وخوذة بيضاء ايضا ، وارتدى
المختونون دشاديش بيضاء كذلك من النسيج الشفاف ، وتدلّت من
اعناقهم رؤوس بصل مقشرة ، تفوح رائحتها النفاذة فتملاً انوفهم
وتجملهم لا يستطيعون شم المطور التي يظن بأنها تسبب الورم
للاعضاء المختونة •

وقد أمرهم المضمّد بأن يذهبوا الى الارض الرملية خارج المدينة ويدسوا اعضاءهم في الرمل الساخن حتى تجف جراحهم وتلتئم بسرعة .

وبدأ الختان كالعادة في الصباح الباكر وسط زغاريد النسوة ، وذبحت ثلاثة خراف كبيرة جاء بأثنين منها عبد ابن أخ حميد .

وفي المساء جاؤوا براقص مع مدرّبه ، وكانا معروفين في المدينة لكثرة ما ساهما بأحياء حفلات فيها . الراقص صغير في السادسة عشر من عمره ، يميل الى القصر والامتلاء ، له وجه فتاة بشعره الاسود المنسدل على كتفيه وثوبه النسوي الذي يستبدله بأخر بعد كل وصلة وكان يتلوى بمهارة مع ايقاع الدحن السريع الذي تضربه اصابع مدرّبه على الدربك ، ويهز كتفيه بارتجاف ناعم ويمط جسده الى أعلى على اطراف أصابعه حتى يبدو وكأنه يتهاى للطيران والتحليق .

أما المدرّب فيعلق الدربك بحزامه ، ويتحرك هو الآخر يخفة ويدور مع الراقص في الفسحة المحاطة بالجالسين وهم يصفقون ويرددون الغناء بانسجام وطرب .

وجلست النساء على السطوح مطلات على الباحة بينما تسلق الاطفال الحيطان وجلسوا فوقها ، وبرزت سيقانهم الهزيلة وهي تتدلى بأقدامها الكبيرة الحافية ، وكانوا مستمتعين ، فهذا أول احتفال يعرفه الزقاق ، حتى زواج هاتف ونجية لم يقم فيه اى احتفال كبير كهذا .

وكان جميع الحاضرين قد اكلوا حتى التخمة لحما ومرقا
ورزا من الوجبة الكبيرة التي قدمت عند العشاء احتفاء بهذه المناسبة،
كما تم ارسال قدر كبير مليء بالطعام الى الفقراء الذي يجلسون
باب جامع الشيخ حسن •

أما اثناء النهار فقد القيت اكياس الحلوى على رؤوس
المختونين مع الزغاريد والتصفيق ، حيث رمت أم هاتف كيسا وكذلك
غالية ونجية وأم نهلة وخيرية ، حتى أم ياسر حضرت عندما علمت
بالخبر ورمت كيسا هي الاخرى ، وكانت الدموع تتلأأ في
مآقيها ، وكأنها تمنى لو كان ابنها الراحل بينهم •

ورقصت زكية حتى كلت ، حيث اتخذ عزيز مهمة العازف
لها ، وأمسك بصفحة فارغة واخذ يخط بيديه فوقها الحانا صاحبة •



وفي مساء اليوم التالي اجتمع مجلس الشيخ علي وكان حميد
جالسا وتبدو عليه السعادة والرضا حيث تمت الفرحة كما خطط
لها ، وكانت دما جديدا سرى في جسد الزقاق الكئيب الذي تمضي
فيه الحياة بطيئة وخالية •

وكان هاتف يحمص حبوب القهوة على النار بالمقلاة الخاصة
لذلك ، وبعد ان فرغ من ذلك سكبها في « الهاون » ، وبدأ يدقها
بصوت منغم ، ثلاث طرقات متتالية يتبعها توقف قصير ثم تأتي الطريقة
الرابعة ، الى ان يتم سحق الحبوب المحمصه وتتحول تدريجيا الى
طحين ناعم تفوح منه رائحة عذبة •

قال جبار :

- الحمد لله • نحن بحاجة الى المزيد من الافراح ، العمر لم

يبق منه شيء •

وأضاف بعد لحظة :

- يوم زواج الاولاد ان شاء الله •

وكان يهز رأسه اثناء الكلام • وعلق حميد على ما قاله :

سفي الزواج لا تمجّل • لكننا في الختان كنا متأخرين ، عزيز

ختناه عندما كان عمره عشر سنوات •

وصحح الشيخ علي الرقم :

- سبع سنوات •

ومال الى الامام قليلا وهو يردف :

- مرة قرأت ان الاصح ختان الطفل وهو في القمط ، عمره

عشرون يوما او شهر • لكن عباسا واخاه قد بلغا مبلغ الرجال منذ

فترة •

وعقب حميد :

- تعرف يا أبا عزيز ان المسألة ليست هينة ، وضيق ذات اليد

هو الذي جعلني أؤجل الأمر سنة بعد أخرى •

ثم انصتوا الى جبار وهو يتحدث بسعادة عن عمله :

- ان الله يحبني ، ولذا خلصني من الجسر ومشاكله ، كل يوم
يفلت ويحمله تيار النهر ولا نمسك به الا في سوق الشيوخ ، أما
الان فأنا سعيد ، والنصف دينار مضمون وهو كاف لنا أنا وام غليو .
ووجد هاتف فرصة لان يحدثهم عن لقائه بالريف مظهر
فقال :

- كنت اعمل في بناء بيت قريب من بيته ، وقد رأيت دكانه
الصغير واخبرني انه افضل من البقاء في مسلك الشرطة .
وعندما استلم هادي الفراش الحديث اطال فيه ، وكأنه يريدهم
ان يعرفوا كل فصول حياته ، ووسط رشف فاجين القهوة ، واصفاء
الجالسين له اخبرهم انه من سكان الاهوار القريبة من سوق الشيوخ ،
وكانت له يوما جاموستان ، باع واحدة وتزوج بثمانها ، ورزق بطفل
جميل ، وكان عمره يزيد على السنة عندما دخلت الجاموسة المتبقية
الى الكوخ وداسته وقد جن جنونه انذاك ، وامسك ببنديته وافرغ
ثلاث طلاقات في رأسها حتى انطرحت جثة هامدة جوار جثة ابنه
الرضيع .

ثم باع البندقية وانتقل الى سوق الشيوخ ، وعمل فترة في
تشيد اكواخ القصب للفقراء المهاجرين من الريف امثاله لقاء اجر
ضئيل ، وبرع في عمله ، وولدت ابنته نهلة ففرح بها هو وزوجته التي
كنت تعمل خادمة في بيت مدير المال ، حيث علمتها زوجته الخياطة .

وتحدث بأسهاب عن صعوبة العيش في الأهوار ، حيث
الامراض والافاعي والجوع والفرق والخنازير . ثم تحدث عن
مهارته في صيد الخنازير وأراهم مكان جرح في كتفه من بقايا ناب
خنزير كاد ان يقتله . ولكنه غطس في الماء حتى اصبح خلفه وامسك
بقائمتيه الخلفيتين وشده بقوة الى اعماق الماء حتى احتقن وطفن
جثته لتكون وليمة جيدة للأسماك وطيور الماء .

ويضيف بأن مدير المال هو الذي توسط في تعيينه فراشا ، ثم
انتقل الى الناصرية ومعه بضعة دنائير اشترى بها البيت من جبار .

* * *

وبعد ان خرج هادي أقرب عزيز من والده وهمس له :

- بابا، أريد ان اخبرك بشيء .

وتساءل الشيخ علي وهو يمسح بيده على رأسه الحليق

الحاسر :

- وما هو ؟

- كل التلاميذ في المدرسة يقولون ان هادي يتعاون مع

الشرطة السرية ، وهو مخبر لديهم ضد الطلبة .

فكفت يد الشيخ علي عن مسح رأسه ، وظل فاغرا فمه

باستغراب ، وتساءل وقد تملكته الحيرة :

- احقا ما تقول؟

- وما الغاية من الكذب؟

واتبه حميد الى حديثهما الهامس فتساءل :

- خير ان شاء الله؟

فردد الشيخ علي :

- لا شيء ، لا شيء .

ثم التقط طاقيته ووضعها على رأسه ، واستطرد بنفس هدوئه

الحائر .

- الدنيا ليس فيها أمان .

واعتدل في جلسته ثم تكلم ببطء وحزم :

- يا جماعة ليس بينكم غريب ، وجبار واحد منا .

ونطق هاتف بدهشة :

- وهل هناك شيء؟

- نعم ، لقد سمعت شيئا من عزيز حول هادي .

وردد حميد الذي كان يرقبه بقلق :

- ما هو؟

- انه مخبر في الامن .

واضاف عزيز مزيدا في ايضاح ما قاله والده :

- ينقل أخبار التلاميذ اولا بأول اليهم •

وكان لقوله وقع صاعق في نفوس الجالسين والذين ما زالت
فرحة الختان ساخنة في اعماقهم • وبعد فترة صمت بادر حميد الى
القول :

- علينا ان نتأكد اولا •

واضاف وهو يحرك يده أمام وجهه :

- وحتى اذا كان كذلك فليس بين اولادنا من يقول شيئا •

وقال جبار :

- رغم ان الحكومة طردتني من الجسر فأنتي احتفظت بصورة
الملك في غرفتي ، وغالية تمسح عنها التراب دائما •
وترددت في صدر هاتف قهقهة مرة اطلقها بصموية ، ثم
قال بتصميم :

- سنتأكد من ذلك •

ثم تساءل حميد :

- ليس الامر مشكلة ، ما الذي يضيرنا منه ؟

وقال هاتف عابسا ومحتجا :

- انه فقير ومنحدر من الالهوار كما حدثنا قبل قليل ،
يزج بنفسه في مثل هذه الامور ويخدم أعداء الفقراء ؟
وقد عجز الحاضرون عن التعليق بشيء ، وكانت احرا سمات
رودها جبار قبل ان يفض مجلسهم :
- على .يه حال اما من يتحمل مسؤوليه ، فقد جت به الى هذا
الزقاق الامن .

القسم الرابع

ارتعاشات في القلوب

منذ أيام والشيخ علي يحاول زيارة صديقه محسن الحلاق بعد ان سمع نبأ اطلاق سراحه من السجن ، حيث امضى سنتين هناك بعد اعلان الاحكام العرفية في البلاد عام ١٩٤٩ ، وهو احد الوجوه البارزة للحزب الوطني الديمقراطي في المدينة •

وكان محسن في الخامسة والأربعين ، ممثلاً قليلاً ويميل الى القصر ، ورغم تمب حياته احتفظت عيناه ببريق فتي يميز وجهه الحليق •

أوصد الشيخ علي باب دكانه ثم مر بمقهى جبار وشرب شايا ساخنا بعد الحاح منه ، ثم اوصاه بأن يخبر اهله عن تأخره بمض الوقت حيث سيذهب لزيارة صديق •

وخرج من الصفاة مودعا روائح الخضروات والاسماك
وصراخ الباعة ، وشق طريقه في السوق الكبير الذي يضم دكاكين
القصابين وباعة الفواكه والخضروات وبعض المقاهي الكبيرة .
ومن ثم انعطف باتجاه سوق القماشين الذي يقع في نهايته دكان
محسن منحسرا بين مجموعة من مخازن الكماليات المعروفة في
المدينة .

وتوقف الشيخ علي برهة أمام الدكان متطلعا من وراء الواجهة
الزجاجية فرأى صاحبه بدشداشته البيضاء ويشماغه وعقاله اللذين
لم يفارقا رأسه . وكان يسك بماكنة الحلالة ، ويدور حول رأس
زبونه .

دفع الشيخ علي الباب ثم اطلق التحية بصوته المتلىء
الوقور :

- السلام عليكم .

والتفت محسن فرأى الشيخ علي امامه . القى بماكنة الحلالة
من يده ، وهب ليعاقه بحرارة وشوق .
- الحمد لله . انك بصحة جيدة .

وضحك محسن وهو يعلق :

- في السجن لا عمل لنا غير الاكل والنوم .

وجلس الشيخ علي منتظرا ان يكمل حلالة زبونه ، وبعد ان
فرغ من ذلك جلس جواره وهو يسأله :
- كيف حال عزيز في المدرسة ؟

- الحمد لله ، انه في الثانوية الان •

ثم تناول منه سيكارة ، اخذ منها نفسا عميقا ، وقال بلهجة فيها نبرة الاعتذار :

- والله لم اعرف انهم اطلقوا سراحك الا قبل يومين ،
والواجب كان ان أزورك في السجن •
- الله يحفظك يا شيخ علي ، انت صديق مخلص •

ثم زم شفتيه بقوة قبل ان يقول بمرارة :

- لم أهتم للسجن ، لكن الاولاد لم يفيوا عن الي لحظنة
واحدة ، والهواجس لا تنقطع بشأنهم •
وضرب يده زافرا بأسف • ثم تابع :

- على أية حال السجن اهون من الموت • لقد قتل احد
مرشحي حزبنا في الصورة • أما أنا فسالم كما تراني • انها حكومة
لعينة واسيادها يعرفون كيف يتصرفون • جاؤوا بتوفيق
السويدي واوهنا بأجازة الاحزاب • وبعده ارشد العمري ليضطهد
هذه الاحزاب ، ويحدث الشغب في البلاد • التظاهرات والقتلى في
بغداد وكركوك وفي كل مكان •

كان صوته محملا بشجاعة الاعماق التي لم تخفت حداثها رغم
السجن • ثم ربت يده على كف الشيخ علي مستحنا اياه للنهوض •
- تعال واجلس على الكرسي • دعني اتلمى بحلاقة شعرك •
أخاف عليك من عيون المخبرين فمازالوا يترصدون الداخلين الى
دكاني •

وضحك الشيخ علي قائلاً :

- انني رجل عجوز وبعيد عن عيونهم •
- انهم لا يميزون ، ولو ترك الامر لهم لسجنوا حتى الطفل
الرضيع •

بعد ذلك نهض الشيخ علي وعلق عقاله ويشماغه • وسأله
محسن وهو ينظر الى رأسه الحاسر :

- مازلت تحصد شعرك ؟

- حتى لا يبقى مكان للقمل • اعوذ بالله منه فهو لا يجد مكانا
أدفاً من شعر الرأس • لا أدري كيف كان اجدادنا يطيلون شعر
رؤوسهم حتى يتهدل على اكتافهم •

وبخفة وضع محسن الشرشف حول عنقه ثم بدأ الحلاقة •
وبعد برهة من الصمت عاد الى حديثه الاول فقال :

- جاؤوا بصالح جبر ليوقع معاهدة بورتسموث وليعيد ربط
العراق ببريطانيا • ولكن الشعب ياشيخ علي لم يرتض بهذه المعاهدة
وتصدى لها • وحزبنا قد لعب دوره في مقاومتها •

وبدأ بحد موسى الحلاقة بقطعة الجلد المتدلية من الجدار ،
ثم فرك رأسه بالصابون وعندما انتهى من ذلك اخذ يحصده ببطء ،
وكان صوت الموس مسموعا •

- فلسطين باعوها ، والعراق يريدون بيعه ، وسيفعلون كل
ما يريد اسيادهم •

وبعد ان انتهى مسح رأس الشيخ علي بالمشفة وهو يعلن
يدعابه :

- ها هو رأسك يلمع مثل النجمة •

* * *

خرج الشيخ علي مدهوشا وحائرا • انه ليس طرفا بكل ما
يجري في البلد • وهمه الاول كسب قوت عياله • ولكنه يحسن ان
السياسة قد بدأت تدخل عالمه ، الى محلته ، الى اصدقائه ، الى الزقاق
الذي يعيش فيه ، وربما الى بيته ايضا ، فابنه عزيز لا بد وان يخفي
شيئا والا من أدراه بأمر هادي الفراش ؟

وحت خطاه خارجا من السوق باتجاه شارع الهواء • وعندما وصله
اخذ يخطو في وسطه ، فقد كان فارغا تقريبا الا من بعض الصيية
والباعة والعائدين الى بيوتهم •

ثم انعطف باتجاه الشارع المؤدي الى بيته ، وبدأ انفسه يلتقط
زائحة الماء الاسن • بصق على الارض ثم واصل الخطو •

* * *

كان باب بيته مشرعا ، والمويل يأتي من داخله • فجمد الدم في
عروقه وردد :

- اللهم استرنا •

لكن كوثر استقبلته :

- بابا لقد قتل ابن خالي عبد •

وصرخ فزعا :

– ماذا تقولين ؟

كانت خيرية تنوح ألماً وزكية تحاول تهدئتها • وعاد صوت
الشيخ علي ليشاءل :

– من اخبركم ؟

واجابته زكية :

– مروا بجنازته الى النجف • قتله منصور الراضي •

وتردد صوت الشيخ علي كالأبج من الالم :

– اذن فعلها ؟

ولم تستطع ساقاه حمله اكثر فجلس على الارض متحبا :

– لا حول ولا قوة الا بالله •

ثم وجه كلامه الى زوجته :

– لماذا لم ترسلوا بي طلبي ؟

– أخبرنا جبار انك ستأخر ، ولا ندري اين نجدك ؟ الناصرية

طويلة وعريضة •

– كان يجب ان أذهب معهم •

– لم يستطيعوا الانتظار •

واستخرج كيس التبغ ولف سيكارة بأنامل مرتجفة :

– ولكن لماذا قتله ؟

وقالت خيرية من بين دموعها :

– هو الاقطاعي ويده كل شيء حتى أرواح الناس •

ولم يعد قادرا على كتم لوعته فأخذ ينتحب ويضرب على وجهه
بيديه :

- آخ يا عبد ، آخ •

ودخل جبار تبعة غالية •

- مصيبة يا جبار ، مصيبة •

* * *

قال الشيخ علي بعد أن تعب من البكاء :

- سنقيم الفاتحة هنا • في القرية لا نستطيع ذلك سيحرق منصور

الراضي بيت من يفعل ذلك •

وردد جبار :

- انت اعرف منا •

وكانت غالية قد قادت خيرية الى غرفتها • ولحقت بهما زكية ،
وتفجر عويلهن المدخر والباحث عن مناسبة حتى يستسلمن له • أما
عزيز وكوثر فقد جلسا واجمين على الحصيرة المفروشة بباب كسوخ
زكية •

ثم صاح الشيخ علي بابنه متسائلاً :

- هل ذهب خالك حميد معهم ؟

- نعم •

وردد بلهجنه الممتلئة حزنا :

- واأسفاه يا عبد •

وقال جبار محاولا تهدئته :

- امسك أعصابك يا أبا عزيز •

- الحياة في القرية لم تعد تطاق • كل اهلها عافوها وتركوها

لنصور الراضي وسراويله وأزلامه ، وكم طلبت من عبد ان يتركها

ويأتي ليعيش هنا •

ويصفق بيديه ويضيف بأسف :

- لا حول ولا قوة الا بالله •

• أقيم مجلس الفاتحة في بيت الشيخ علي ، وجاؤوا بمقرىء أعمى كان يجلس في باب جامع الشيخ حسن مرتلا آيات من القرآن بصوته الاجس •

وحملت السيارات الخشبية عددا كبيرا من الاقارب والمعارف وزوجاتهم من « ابو هاون » والقرى المجاورة لها للتعزية بالوفاة ، فكان إقامة مجلس الفاتحة في المدينة قد اراحهم من مشاكل منصور الراضي واتباعه وسراكيه •

وكم حميد ألمه الكبير • وعجز عن الاتيان بعمل • كيف يستطيع الانتقام من قاتل ابن اخيه الذي كان الجميع يلقبونه بشمعة العنيرة • وقد قرأ الاصرار في وجوه الاقارب والاهل ، والحزن الكظيم الذي لن يمحوه الا النار •

لكن الشيخ علي كان اكر حكمة عندما جمعهم بعد انفضاض
مجلس الفاتحة واسر لهم :

- قبل ان تعودوا الى ارضكم احب ان اتحدث معكم •

ورفع الحاضرون رؤوسهم السماء في انتظار ان يقول كلمته
التي كانت تعني بالنسبة لهم الشيء الكثير ، وقال :

- لقد فقدنا أعز شبابنا ، قتله اقطاعي نذل في ساعة غضب • وكما
رأيتم لم تسارع السلطة لاعتقاله او احالته الى المحاكمة على الاقل ،
بل سجلت الحادثة قضاء وقدرًا ، وان الاطلاقة كانت موجهة الى
ذئب هاجم الاغنام ، وقد أيد هذا شهود عيان ، واقسموا اليمين على
ذلك فتصوروا •

وكبر الوجوم الحائر في الوجوه ، وهي تفرس عيونها المنتظرة في
وجه الشيخ علي الذي يجاهد من اجل السيطرة عليهم قبل ان يتفجر
غضبهم ويحيلهم الى كواسر فتاكة لن يروي ظمأها وسخطها الا
الشرب من دم منصور الراضي •

وواصل بعد ان التقط حبات مسبخته ثم اسقطها بصوت مسموع •
بينما يدور في المكان دخان السيكاثر الذي تنفته الافواه المترتبة :

- أريدكم ان تمسكوا بأعصابكم ، وكل شيء يأتي في وقته •
هذه مسألة مهمة يجب ان تدركوها ، والرجل الحليم هو الذي يستطيع
ان يكتفم غضبه ويفجره في الوقت المناسب حتى لا يصبح عمله
رعونة عمياء •

وأطال معهم في الحديث • حدثهم عن البلد ووضع السياسي ،
وموقع الاقطاعيين من امثال منصور الراضي فيه • وكلمتهم المسموعة
من قبل الحكومة • ثم حدثهم عن المظاهرات والاضرابات والوصي
والانكليز وصالح جبر ونوري السعيد ، وكانوا فاعزين افواهم عجباً
أمام كلماته • ثم ختم حديثه بقوله :

- عندما تحين ساعة الانتقام ستنتقمون ليس من اجل عبد فقط .
بل من اجل كل الفلاحين الاخرين الذين قتلهم •
وقد امتلأ عزيز زهوا من كلمات ابيه ، وكذلك هاتف الذي
انضم الى المجلس •

أما حميد فقد اعلن :

- أرى ان كلمات عمكم صحيحة ، ويجب ان تأخذوا بها •
وعندما خرجوا مغادرين الى قريتهم اقسموا بأن يمسكوا بأعصابهم
متحينين الفرصة للتأر •

* * *

انفرد هاتف والشيخ علي في حديث خاص انطلق من مقتل
عبد ، وكان هاتف متحمساً لاقناع الشيخ علي بصواب موقفه في مقارعة
الحكومة مما حدا بالشيخ علي لان يقول :

- انت شاب ومتحمس ، أما انا فلا طاقة لي • الكبر لعنه الله
بانعني •

وبعد ان استسلم لسعلة حادة هاجمت حنجرتة قال :

- أقول هذا ليس خوفاً ، ولكن انطلاقاً من مسؤوليتي كسرب عائلة • احزاب كثيرة مرت في المدينة وانا واحد من اوائل الذين يعرفون القراءة والكتابة فيها ، لكنهم لم يفكروا بي ، كلهم يقولون لندعه لقراءة القرآن وكتابة الادعية ، لكنني وفي أعماقي كنت قريباً من الحزب الوطني الديمقراطي ، وهذا شيء قد تعرفه لأول مرة عني ، قرأت صحفه ، وتابعت اخباره ، وكان محسن الحلاق يحدثني عن كل ما يدور في البلد ، وعندما يضع المنشقة على رقبتى أساله : هه ، ما الجديد ؟ وكأنه ينتظر مني هذا السؤال فيبدأ بالحديث • وبعد ان سجنوه انقطعت الاخبار ، وقبل ايام اطلقوا سراحه والحمد لله •

- في قناعتى ان العديد من الاحزاب القائمة في البلد هي احزاب مرحلية ، قيمتها من قيمة الاشخاص الذين يمثلونها ، وبعد ان يزولوا تذهب معهم احزابهم •

فكر الشيخ علي للحظات بما قاله هاتف ثم قال :

- قد لا أوافقك على رأيك ، ان الرجال من مبادئهم ، وكذلك المبادئ من رجالها ، المسألة ليست مجزأة • ان اغلبية قادة البلد الوطنيين هم من رجالات الوطني الديمقراطي والشعب والاستقلال •
- على اية حال ، انها وجهة نظر على الرغم من صعوبة اصدار الاحكام المسبقة •

ثم نادى على كوثر واعطاها درهما وهو يقول :

- هات لي تبغا من دكان ياسين •

وعندما استدارت خارجة ناداها مضيفاً :

- قولي له والدي يريد حاراً مثل تبغ البارحة •

بعد ذلك تتم وكأنه يحدث نفسه :

- ولو انني اكره ان ارى وجه ياسين النجس •

وضحك هاتف وقال :

- كنت عائدا البارحة من السوق فوجدته قد اخرج زجاجاته

وصفها في باب الدكان استمدادا لتفريغها •

- كل واحد له جنونه • ولن يهمننا امره مادام لا يعتدي على

أحد •

- يخيل الي انه منحرف جنسياً •

وعلق الشيخ علي بدعابة :

- ولكنه يشكو من المنه ، وقد طلب مني ان اكتب له حجبا عليه

يزيحها •

- وما أدراك بأنه يموء حقيقته بهذا العمل ؟

ونكت الشيخ علي زيق ثوبه متمتما :

- استغفر الله ، استغفر الله •

* * *

وعندما خرج هاتف سار باتجاه بيته بعد ان القى نظرة مبتسمة
على الاطفال وهم يتلهون بقفز المجرى الذي يخترق الزقاق لتصريف المياه
الوسخة ، كما القى نظرة اخرى على مجموعة من الدجاج امام البيت
المجاور لبيت الشيخ علي حيث يتبختر وسطها ديك احمر ذو عرف
متصب •

وعندما خطر من أمام بيت هادي الفراش سمع صوته يناديه
فاستدار عائدا •

- اهلا هادي •

- أردت ان اسألك حول بيتي •

- ما به ؟

- فكرت بأن ابني واجهته بالطابوق ، ولكنني لم اعرف كم

بكلفني هنا ؟

ونطق هاتف بعد ان القى على واجهة البيت نظرة خاطفة

وخبرة :

- خمسون دينارا تكفي •

وعلق هادي على قوله :

- تصورت اكثر ؟

- لا ، انها كافية •

-تعرف ان أم نهلة تكسب اكثر من دينار في اليوم ، ولولاها

لسقط علينا البيت دون ان نطيق اعادة بنائه • لكن قل لي متى تفرغ ؟

- الاسبوع القادم ، المهم ان تشتري الطابوق اولاً •

اخذ عباس يتهرب من اخيه كلما خرجا من المدرسة ، حيث
 يتوقف قرب احدى اشجار حديقة « غازي » منتظرا خروج نهلة من
 المدرسة ليتمشيا باتجاه ثكنة الشرطة المواجهة لبستان زامل ، ومن أمامها
 يستديران ويحطان الخطى في الطريق المحاذي لسياج المستشفى •
 ويبدأ حديثهما من المدرسة ومتاعب الدروس ومشاكل التلاميذ
 وصولاً الى الحديث عن خفقات قليهما ، وشوقهما لان يبقيا سويسة
 دوما •

وكان عباس اطول منها قليلا وهي تخطوا جواره وقد اكتسبت ملامحه سمات الرجولة المبكرة ، وظهر فوق شفثيه زغب اسود . كما بدأ جسد نهلة بالاكتناز ، وتكور نهداها وبرزا باشتهاء واثارة .

* * *

خلا الشارع المريض من المارة تقريبا ، ولكن في الفسحة الكبيرة المواجهة للمستشفى تجمع عدد كبير من العمال ليفرغوا السيارات المحملة بالطابوق .

اتبعت نهلة لما يفعلونه وسألته :

— ماذا يريدون ان يبنوا ؟

— يقول هاتف انهم سينون بيوتا ويوزعونها على الموظفين .

— وهل سيعطونك واحدا اذا اصبحت موظفا ؟

وانتشي عباس من سؤالها واعلن بزهو :

— نعم ، وفيه كهرباء ، وسقفه قوي لن تسرب منه قطرة من الماء .

— والدي سيبنى لنا غرفة من الطابوق بعد ان بنى واجهة البيت .

— هل اتم اغنياء ؟

— كلا ، ولكن امي تجمع محصول الخياطة .

وعلق عباس بمرارة :

— ولكن والدي فقير ، وفوق ذلك امي مريضة ، ويحتاج علاجها

الى دنانير كثيرة .

وسألته بطفولة :

- ولماذا هي مريضة ؟

- لا أدري ، انها مريضة منذ سنوات ، ولم تفد معها الادوية ،

لذا قال والدي لندع امرها الى الله .

وبعد ذلك تمتم وهو ير كل حجارة بمقدمة حذائه :

- عندما انتهى من المتوسطة في السنة القادمة سألتحق بسدار

المعلمين في بغداد .

وفترت فمها :

- ولكنها بيضة جدا ؟

- ليلة واحدة في القطار وأصل ، وهناك اسكن في القسم الداخلي

وبعد ان اتخرج اعود الى الناصرية ، واطلب من والدي ان يخطبك

لي . وسنبني لنا بيتا في الجهة الاخرى من النهر ، ونخرج من محلتنا

وامتلاً صدرها بالفرح وهي تسأله :

- هل انت صادق ؟

وأكد لها وهو يهز رأسه قائلاً :

- والله العظيم .

وعندما اصبحنا على مشارف المحلة تركها لتدخل الزقاق قبله ،

بينما تزيث هو بعض الوقت .

* * *

دخل عباس بيته فوجد امه ممددة على الحصير بينما جلست نجية
بالقرب منها تحدثها •

وعندما رآته قالت بقتاب :

- لم ارك منذ ثلاثة أيام ، ولم تسأل عني ؟

ورمى كبه على السرير واجاب معتذرا :

- تعرفين صعوبة الدروس وكثرة الامتحانات •

وكان كامل قد سبقه في المجيء حيث دخل الغرفة ليخلع بنظلولونه
ويرتدي بدلا منه دسداشته ، وكان يصفي لما قاله اخوه ، فأسرع
بالخروج ، وجلس جوار امه وهو يعلق بسخرية :

- نعم ، اشغاله كثيرة •

فاغتاظ عباس من كلامه وقال :

- نعم ، مشغول بالبحث عن خليفة جديد •

وصاح فيه كامل بغضب :

- اسكت ، الاسلام سيسود رغم انك •

وتدخلت نجية منغابة :

- اذكرا الله ، أمكما مريضة •

وتساءلت حسنة بمرارة :

- أنا حية واتما تتنايزان هكذا ؟ فماذا ستفعلان بعد موتي ؟

وسكتا دون ان يملقا بشيء أمام عتابها المؤلم • ودخل كامل

الغرفة من جديد ، واستخرج قرآنه وبساط الصلاة ، وضعهما على

السرير ، ثم قصد الحنيفة وبدأ يتوضأ •

وألقى عباس نظرة متألمة عليه ، ثم اتكأ على جذع النخلة وظل
يصفر لحنا ريفيا •

وخطبته أمه :

- والدك على وشك المجيء ، البس دشايتك حتى ترتاح •
وامتلل عباس للكلام والدته • ودخل الفرقة ليخلع بنطاله وقمصه
على عجل ، وجاءه صوت نجية وهي تقول :

- عباس ، اشعل الفانوس •

وبحث عن علبة الثقاب في الدرج وعندما وجدها اشعل الفانوس ،

وخرج •

سألته نجية :

- لم تخبرني عن وضعك في الدروس ؟

وردد بثقة :

- معدلاتي عالية •

- الله يسمع منك • ان شاء الله تنجح انت واخوك ليرتاح

والدكما من الحراسة والسهر •

ثم قبلت امها على جبينها ونهضت وهي تقول معذرة :

- هاتف على وشك المجيء ويريد عشاءه •

ثم اضافت مذكرة أمها :

- كما اوصيتك لا تمجني الطحين بعد ، سأفعل ذلك قبل ان

أذهب الى السوق ، وستخبره أم هاتف في تورنا •

وبعد ان انتهى كامل من وضوئه ، أخذ يردد بعض الادعية بصوت خاشع مسموع • ثم حمل بساطه وقرآنه وجلس على مقربة من أمه •

أما عباس فقد تمدد على ظهره ، وزرع عينيه في السماء ، واصفى بعض الوقت لترتيل اخيه ، وعندما جاءهم صوت الاذان من جامع الشيخ حسن ، اطبق القرآن واعاده الى الكيس الوردى الذي يحفظه فيه ، وبدأ يصلي •

اقرب عباس من أمه وسألها بهمس :

– ما ما •

– نعم •

– متى أستطيع ان اتزوج ؟

وردت عليه ببساطة دون ان تأخذ تساؤله مأخذ الجد :

– عندما تشبع بطنك •

– واذا توظفت ؟

– ستزوج آنذاك ويصير لك بيت واولاد •

واحتضنها آنذاك بانفعال ودفن وجهه في صدرها الضامر :

– اريدك ان تخطبي لي بنفسك •

– اوه يا عباس • يا ولدي ، يجب ان تدبروا امركم بانفسكم فأنا لن

أعيش طويلا •

وانفجر بالبكاء بعد ان سمع كلامها الشجي ، فأخذت تربت على

كفه •

- أريدك ان تكون رجلا ولا تتشاجر مع اخيك ، جيت بكما
وتعذبت ، واريديكما ان تعيشا في وفاق •
وبعد ان انهى كامل صلاته خاطب أمه :
- انتي جائع •
وتعكزت على كوعها ساحبة جسدها العليل بصعوبة • ثم اشعلت
الطباق النفطى وهي تقول :
- سأسلق التمن • لن يأخذ ذلك وقتا طويلا •
ثم استخرجت عشرة فلوس من صرة في طرف فوطتها واعطتها
لباس امرأة :
- اذهب ، واشترلنا طاسة لبن •
وعندما حضر حميد ومدت سفرة الطعام تجمعا حولها وبدأوا
يأكلون وكان حميد ينظر لباس بطرف عينه بين فترة واخرى محاولا
ان يكبح ما يعتل في داخله •
وبعد ان فرغوا من تناول طعامهم انفجر غضب حميد فجأة
وامسك باذن عباس وهو يسأله :
- مع من كنت اليوم ؟
واصابه تساؤل والده الغاضب بالخرس والذهول ، واخذ يتأنيء
دون ان يقوى على النطق • ورفع حميد صوته مبيدا السؤال :
- اجب ، مع من كنت ؟
واتحج عباس من شدة الالم بينما تدخلت حسنة صارخة :
- ماذا فعل ؟

ودفعها عنه وهو يهزها •

– لا تدخلني أنت •

ثم التفت إليه من جديد ، وصوته يرتجف من الغضب :

– مع نهلة ؟ اليس كذلك ؟

وضربت حسنة بيدها على صدرها عندما سمعت ما قاله زوجها

وشهقت بألم • بينما واصل حميد :

– رأوك معها قرب بستان زامل • ماذا كنتم تفعلان هناك ؟

وظل عباس يردد من بين دموعه :

– والله بابا لن أمشي معها بعد •

وصفحه بقوة على خده وطرحه على الأرض ثم ركله بعد ذلك

ودفعه بعيدا •

وامسكت حسنة يده ، وساعدها كامل على ذلك ، واخذت

ينوسلان به محاولين تهدئته •

وجلس حميد على السرير لا هثا وهو يردد :

– ماذا تريد ان تفعل بابنة الناس ؟ اذا تكلمت معها كلمة واحدة

سأذبحك واشرب من دمك •

ثم نهض بعد ذلك ، ولبس عقاله ويشماغه على عجل ، ثم حمل

بنديته على كتفه • وقبل ان يخرج وقف بالقرب من عباس المرتمي

على الأرض ونطق متوعدا :

– قسما بالله العلي العظيم سأقتلك وادخل السجن •

كان من عادة عزيز ان يحمل كبه ويخرج الى الجهة الاخرى
من النهر • وهناك يجلس على الشاطئ المرصوف بالحجارة مستنداً رأسه
الى جذع نخفة سامقة • ويبدأ بالقراءة • وكان يتوقف احيانا ليسجل
بعض الكلمات الناعمة ، يسطرها وفي خياله وجه ماجدة ، وهي فتاة
بيضاء تميل الى الطول ، تميزها عينان ساهمتان ، لهما لون الحقل
الاخضر وهو يصفح شمس الصباح ، يقع بيتها بين مجموعة البيوت
الجديدة المقابلة للمستشفى عند تفرع الشارع الذي يقع فيه بيته من
شارع الهواء •

وعلى الرغم من تضجها وبهاثها فأنها مازالت في مرحلة الدراسة المتوسطة ، وعرف انها دخلت المدرسة متأخرة ، وليس في نية اهلها تشجيعها على الاستمرار في الدراسة ، فوالدها لا يقر تعليم البنات لانه مفسدة لهن ، كما انها مخطوبة لقريب لها يعمل في الحدادة •

وقد بحث عزيز عن دكانه ذات يوم حتى وجده ، وتظاهر بشراء شيء ، وملاً عينه جيداً من رأى هذا الشاب الذي سيأخذ حبيته بصفقة رتبها الاباء ، تطلع الى وجهه المتلوى ذي العينين الصغيرتين ، وشعره الاكرت الذي لم يزره المشط منذ شهور • ونظر الى كفيه المحدين ، واصفى الى كلماته الجوفاء • فشعر بالرائاء لها • كيف يقتحم هذا المخلوق عالمها الساهم؟ وهل يطيق ان يقرأ خانان المصور في عينها الخضراوين؟ وهل يحس بهذه الروعة كلها؟ ويتشقق دقائقها وريمها؟ وتمتم عزيز مع نفسه :

— لا ، لا •

وكان يهز رأسه استكاراً •

واطبق كتابه ، واخذ يدخن ، ويسرح بصره باتجاه الممال العديدين وهم يواصلون تشييد الجسر الجديد بهمة ، وشده أمام قدرتهم على نصب الاعمدة الكبيرة في جوف الفرات العميق • ونظر باتجاه الجسر العائم القديم والمربوط الى ضفتي النهر بحبال قوية بينما تحمله طوافات كبيرة •

وكان يتأرجح مع حركة الهواء والموج ، ويزداد تأرجحه كلما مرت عليه سيارة او عربة •

واصفي بعض الوقت لاصوات العمال وهم يغنون او يتصايحون
اثناء العمل . كل شيء امامه يمضي ، ولا احد يطيق ايقافه . ولكن
السياسة مع هذا يحاولون ان يوقفوا هذا المضي ، ولذلك وجدت
دعوات الاحتجاج صداها في اذن عزيز ، وبدأ يرفع صوته بشجاعة .
كان مبهورا بقراءاته التاريخية ، واكثر انبهارا أمام تلك
الانجازات العظيمة التي سجلها العرب في ماضيهم . ودوخوا بها
العالم . ويضرب يدا بيد عندما يرى ذلك المجد التليد وقد تحول الى
دويلات صغيرة تلهيها مسائل الحدود وقمع مواطنيها اكثر من
اهتمامها بالمصير المشترك لاحياء ذلك التاريخ .

ورغم صغره فقد تظاهر ضد تكوين اسرائيل ، وضد تشريد
أبناء فلسطين . ولكن الاحكام العرفية كانت معلنة بالبلد . واقيد كل
الذين تظاهروا الى السجون والمعتقلات ، وكان يتسامل في سره : لماذا
يسجن هؤلاء في الوقت الذي تفتن فيه الحكومة انها ضد التقسيم ،
ولا تعترف بالكيان الجديد ؟

كانت اللعبة اكبر من مداركه ، وعندما دخل الثانوية بدأ وعيه
ينضج . وتعرف على انتماءات الطلبة الموزعة بين اعادة كيان الاسلام
وخلفائه وسيوفه ومبشره ، وبين دعاوى الاشتراكية ، وثالثة الى
ديمقراطية غربية .

ولكن عزيزا مبهور بمجد الامة ، ويحلم بأولئك الرجال الذين
يفكرون بهذا ، وقد اعجب بتأكيد حزب الاستقلال على قوميته ، وقرأ

عن مؤسسه الذين دخل معظمهم السجن طيلة أيام الحرب العالمية الثانية •

وفرّح أكثر عندما قرأ عن تطرف هذا الحزب في محاربة الإنكليز ، ووقوفه في وجه مشاريعهم وأحلافهم • وفرّح أيضاً لمساهماتهم في الاحتجاج على معاهدة بورتسموث وأسقاط صالح جبر البشر بها •

كان يتابع أخبارهم على الرغم من أن جمهورهم قليل بين أقرانه ، والذين وجدهم كالحطب المرشوش بالنفط ، إيماضة نار صغيرة كقيلة بأشغال فيله الذي لن يخمد ، وكلهم يهتفون ضد الوصي ونوري السعيد والأخلاف •

ورأى بأمره كيف يقنط البعض من هؤلاء الزملاء ويلقى بهم في السجون ، ويحرمون من مدارسهم وأحلامهم •
وتناقل الطلبة أخيراً ما يجري في إيران ، ومجيء مصدق الذي قام بتأميم النفط وتحدي الإنكليز •
وردد أحد الطلبة :

— هذا البلد بحاجة إلى مصدق جديد •

وقد جلسوا يستعرضون الشخصيات السياسية ، ومن مناساتها يستطيع ذلك ومررت أمامهم صور قادة أحزاب المعارضة • ولكنهم رفضوهم كلهم • وتمتم طالب اشقر ، له شاربان كان :

- معارضة تقليدية سخيفة .

وردد اخر كان يحشر اصبعه في أنفه :

- بينهم وبين النظام شعره معاوية ، ويلعبون السدور جيدا .
واعترض اخر كان يدخن متلفعا حتى لا يراه احد المدرسين :
- لا تبخسوا الناس أشياءهم، كل هؤلاء كتبوا واحتجوا ودخلوا
السجون .

واضاف بعد ان نفت ما تبقى في صدره من دخان :

- كامل الجادرجي مثلا؟

* * *

كانت لايام الدراسة احلامها ، ولها تحديها ايضا ، وفي المدرسة
الثانوية الوحيدة في الناصرية كان الغالية يحتجون ، كلهم يرفسون
اصواتهم بلا خوف ، ولم يفلح المدير بقسوته وجبروته واسناد أجهزة
الامن له ان يوقف هذا التحدي . الجدران والسبورات ملأى
بالشعارات وكذلك المنشورات التي يجدها في مكتبه ، فيتور ويرعد
وينادي المخبرين ، ويطرد أي طالب يشبهه، ولكنه رغم هذا كله
لم يفلح في الوصول الى شيء .

* * *

واستيقظ عزيز من تأملاته . وبدأ يقرأ ما سطره في ذكرى
ماجدة التي ستكون هبة لرجل اخر :

في عينك ضوء حياتي

أنا الذي أضع قدمي في عتمة الدروب ..

أسوار وأسوار •
 كيف الوصول اذن ؟
 قلبي أراد ان يتعلم الفرح منك
 أن يقرأ كتاب التفاؤل في خضرة عينيك •
 لكنني لم ارتشف من عنايد النور
 واصبحت سمائي ملبدة بألف غيمة
 فمتى يأتيني الصحو ؟
 ماجدة •• من يوقف هذا النزف ؟
 ومن ينير هذا الظلام ؟
 ولكنه اقتطع الورقة وكورها بانفعال ورمها في الماء الجاري •
 ثم التقط كبه ونهض حاملا سترته على ذراعه •
 توقف في رأس الجسر قرب مظلة شرطي المرور فاسحا المجال
 لقطع من الاغنام ورعاته ليبر قلبه مواصلا رحلة العودة من الصحراء
 بعد أن مكث فيها طيلة ايام الشتاء •
 وكانت عودة الرعاة هذه تعني تحريكا لموسم البيع والشراء
 فيترصدهم التجار لشراء الصوف والسمن ، ليشتروا بأثمانها الشاي
 والسكر والقماش واللوازم الاخرى ، وكانوا غالبا ما يتعرضون
 للسرقة عندما يقطعون الطريق المحاذي لبستان زامل باتجاه السدة
 الترابية •
 وبعد ان عبر الرعاة لحق بهم عزيز متباطئا ، ولكنه توقف
 ليتطلع الى بعض الثبان وهم يصطادون السمك من فوق طوافات
 الجسر ، وكان عزيز يجيد طريقة الصيد هذه ويعشقها ، ولكنه تخلى

عنها عندما كبر وكبرت معه همومه، واحسن برغبة مفاجئة في ممارسة الصيد مرة اخرى .

وقفز سياج الجسر بخفة ليستقر فوق الطوافة ، وطرح سترته وكنبه ، ثم رفع طرف دشدشته ودسه في حزام لباسه الداخلي ، وخطب احد الثبان برجاء :

- دعني اساعدك .

فأعطاه الشاب العصا الطويلة التي يتدلى منها خيط لا يتجاوز طوله المترين ، وقد شدت السنارة في طرفه . كما عقد خيط اخر في السنارة يبلغ طوله البوصة ، وبدأ عزيز برمي السنارة بعيدا ثم يسحب الخيط بقوة وخفة ، فيبدو الخيط الصغير آنذاك كسمكة ناعمة تشق مجرى الماء فتتهجم عليه احد الاسماك الكبيرة وتلتهمه . ويرز حذق الصياد آنذاك عندما يسحب الخيط بقوة بحيث تعلق السنارة في لهأة السمكة .

ولم يمر وقت طويل على عزيز حتى اصطاد واحدة فرح لها صاحب السنارة ، ثم اصطاد الثانية بعد فترة قصيرة . وسلم السنارة الى صاحبها شاكرا .

- تقاسمها ؟

- لا ، انهما لك .

- أرجوك .

- يجب ان اشكرك لانك اتحت لي المجال لتذكر ايامي

الماضية .

- اهلا بك ، انني هنا كل يوم تقريبا ،

ثم التقط كبه وسترته وواصل عبور الجسر الذي كان يتمايل
بهدهء مع حركات السيارات التي تنظمها صافرات شرطة المرور •
ومضى عزيز باتجاه بستان زامل ، فوجد على اطرافه عددا
كثيرا من صفار الموظفين والعمال والباعة ، وهم يفترشون العشب ،
ويضعون أمامهم زجاجات العرق • وكانت اصوات قهقهاتهم وغنائهم
تبقى معربرة حتى ساعة متأخرة من الليل ممتزجة بمواء بنات آوى
الذي يأتي من جوف البستان •

واستمر عزيز في الخطو سريعا سالكا الطريق باتجاه السدة
الترابية • وكان الطريق خاليا الا من السيارات الخشبية الداهية
الى الشطرة او سيارات الحمل القادمة من معامل الطابوق •
ارتدى عزيز سترته عندما وصل الى بيت كبير يقف وحيدا
بجدرانها العالية ، تردد في الدخول أول الامر مخافة ان يعرفه احد
زبائنه ، لكنه اتبه الى بيت صغير شيد حديثا جواره ، وقبل ان يدلف
ناداه صوت من البيت الجديد :

— تعال •

فالتفت • كانت امرأة ثلاثينية تقف بالباب ، ترتدي ثوبا قصيرا
يكشف عن نصف فخذيها ، بينما عقصت شعرها على هيئة جديلتين
رمتها على صدرها •

وعندما لاحظت تردده تساءلت باغراء :

— مالك ؟ لماذا لا تأتي ؟

تأملها عزيز متفحصا ، ثم قال لنفسه :

— لا بأس بها

تم خطا باتجاهها •

٥

بعد انتهاء صلاة الجمعة خطب الشيخ حسن ، وتركزت خطبته
حول الدعوة الى بناء بيوت الله والاكتار منها . وجاء باحاديث واقوال
للرسول والصحابة عن ذلك . وضرب مثلا بأسماء رجال عديدين
شيدوا مساجد من مالهم الخاص فقط دون معونة من احد . وقال
عنهم :

– هؤلاء ضمنوا الجنة ، فهنيئا لهم بها •

وهمس رجل الى زميله الذي لم يتقطع سعاله منذ لحظة جلوسهما :

– الله سبحانه وتعالى اعطاهم مالا كثيرا ، أما أنا فلا أجد ما يسد قوت عيالي •

وعقب الرجل على قوله هامسا :

– هؤلاء يحبهم الله فأعطاهم ، أما نحن فيبدو انه لا يحبنا •
– ولماذا لا يحبنا ؟ ماذا صنعنا له ؟ لم اترك الصوم ولا الصلاة حتى في مرضي وسفري وهو يعرف جيدا ما في قلبي •

وهمس لهما رجل كان يجلس وراءهما :

– اتركوا حديثكما حتى ينتهي الشيخ من خطبته •

فصمتا دون ان يضيفا شيئا • بينما استمر الشيخ حسن في القاء كلمته • وذكّر اسماء بعض المحسنين الذين تبرعوا بكمية كبيرة من المال لاستكمال بناء الجامع • ثم طلب من الحاضرين ان يجودوا بما عندهم لهذه الغاية • وامر احد اعوانه ان يأتي باناء كبير ويطوف به بين الجالسين • واسرع وجاء بالاناء ••• وامتدت الايدي الى الجيوب ومحافظ النقود والاكياس • ودفع الحماس بعضهم لان يلقي بكل ما حمله •

وبدأت في المكان حركة جديدة ، واطلق المسنون لحناجرهم
العنان لتلقي ما اخترته من سمال وبلغم •
وتبرع الشيخ علي بدينار وربع ، أما حميد فنصف دينار هو
كل ما في جيبه • ورمى جبار ديناراً •
وكان الشيخ حسن يحتم بصوته العالي • وهو مازال جالسا
على المنبر :

– اولادي ما تدفونوه في دنياكم هو لكم في اخرتكم •

وهمس احد الجالسين الى صاحبه بأسف :

– لا فائدة •• هدم الشيخ حسن بيوتهن هنا فظهرن في بيوت
اخرى على مشارف المدينة وبحماية الشرطة • واولادنا يذهبون
اليهن •

وعلق جليسه على قوله :

– انهن طاعون لا شفاء منه •

– وماذا تفعل ؟

وردد بحكمة :

– المهم إن نحافظ على بناتنا واولادنا • انهن بيدات عن بيوت
الاشراف ، وقد سيد هذا المسجد الشريف ليطهر المكان • الله
ينصر الشيخ حسن •

وتساءل :

- ما رأيك في ان نخبر الشيخ حسن بذلك

- انه يعرف •

- وماذا قال ؟

- لم يقل شيئا •

- لماذا لا نطلب منه ان نهجم عليهن ونحرق بيوتهن ،

ونرجمهن بالحجارة ؟

- سيرموتنا في السجن •

- مرحبا بالسجن اذا كان دفاعا عن الاسلام •

- محمد صلى الله عليه وسلم بكل عظمته وقوته لم يستطع

اصلاح كل الناس ، أتريد من الشيخ حسن ان يفعل ذلك وحده ؟

وبعد ان امتلا الاناء بالنقود ، قدمه حامله الى الشيخ حسن وهو

يتمتم :

- الخير كبير يا شيخنا •

ثم طلب ثلاثة رجال سنين ناداهم بأسمائهم ان يأتوا ليعدوا

النقود ، ونهض الرجال الثلاثة وبدأوا العد سريعا • وبعد دقائق

ووسط انتظار الجالسين ردد احد الثلاثة :

- المجموع خمسة وثلاثون ديناراً ومائة وسبعون فلساً •

فقال الشيخ حسن :

- بارك الله فيكم • سنشتري طابوقا ، وتشييد هذا الجدار ،
واشار بيده الى جدار عن يساره لا يزال مشادا بالقصب المطلبي
بالطين •

ونفض شاب من بين الجالسين واعلن :

- مولانا الشيخ سأقوم ببنائه مجاناً •

وهتف أغلبية الجالسين بصوت واحد :

- الله يرضى عنك •

وعقب آخرون :

- ابن حلال •

وبدأ الحاضرون بالنهوض بعد ان نزل الشيخ حسن من المنبر ،
وخرجوا متوزعين على الشوارع والازقة والبيوت المجاورة للمسجد •

وسار الشيخ علي وحמיד وجبار باتجاه زقاقهم ، وكان الناس
باديا على وجه حميد • أما جبار فقد امتلاً هيكله قليلاً ، وصفا لون
بشرته •

قال جبار كمن تذكر شيئاً فاته ان يذكره :

- تصوروا ما حدث لي البارحة •

وقبل ان يسألاه تابع :

- حطمت امرأة راديو المقهى بطابوقة •

وردد الشيخ علي :

– واين وجدته ؟

– وهو في مكانه •

وعلق حميد :

– لا بد انها مجنونة •

فأوقف تكهناتهما بأشارة من يده حيث واصل الشرح :

– كانت فيه اغنية جميلة لخضير حسن الله يرحمه ، وكان
الجالسون مطربين لها ، واذا بامرأة عجوز تخرج من بين الزحام
وتهجم على الراديو بطابوقة لا أدري من أين جاءت بها فيسقط على
الارض مهشما •

وبلع ريقه وواصل الشرح ليردم حيرة صاحبيه :

– وكما قال حميد ظننت انها مجنونة بادية الامر وخصوصا
بعد ان تربعت على الارض متحبة • فهجمت عليها لاهشم اضلاعها
كما هشمت الراديو ، ولكن احد الجالسين أمسك بيدي ومنعني من
ذلك ، ثم اخبرني انها اخت خضير حسن وانها لا تستطيع ان تستمع
الى صوته دون ان تفقد صوابها ، حتى الاسطوانات التي كان يحتفظ
بها اولادها حطمتها ، فذهبت اليها وانهضتها وتركتها تمضي دون ان
اسلمها للشرطة لتغرمها الثمن •

وتساءل حميد وهو منفعل بما سمع :

- وكم ثمنه ؟

- سبعة دنانير • نصف عمر •

وتمتم الشيخ علي :

- مبلغ بسيط ، ولا يحتاج للاسف •

وعاد حميد الى القول وكأنه اتبه الى حقيقة كبيرة :

- كل المغنين في الاذاعة من الناصرية •

وعدد بأصابعه :

- حضيري أبو عزيز ، داخل حسن ، ناصر حكيم ، جبار ونيسه

وخضير حسن •

وعلق جبار :

- وهناك آخرون ، ولكنهم لم يذهبوا الى الاذاعة ، بينهم واحد

كان يعمل ممي في الجسر ، والله ان له صوتا يفتت الصخر ، فكيف

بقلب الانسان ؟

* * *

وبعد ان تناول الشيخ علي غداءه خرج ، وعندما سأته خيرية

عن وجهته اخبرها :

- سأذهب الى الحلاق •

* * *

لم يكن في دكان محسن زبائن كثيرين ، وبعد ان تصافحنا ،
ارسل الصبي ليحلب له شايًا •

كانت الحركة في السوق فاترة ، فقد اغلق البعض دكاكينهم
وذهبوا الى بيوتهم ، ولم يبق الا بعض الباعة المتجولين اضافة الى
المقاهي الرئيسية في السوق •
قال محسن بألم :

– الناس تخاف من المجيء الى دكاني ، يريدون ان يقطعوا
رزقي •

ثم اضاف وهو يصفق بيديه :

– لقد وضع الشرطة صورتي وصور بعض السياسيين في
السراي بلوحة الاعلانات ، ووصفونا بأننا مجرمون خطرون ، تماما
مثل النشالين وقطاع الطرق • والله لاذهبن الى بغداد واقدم شكوى •
وتمتم الشيخ علي :

– هذا شرف يا أخي ، ياليت لنا القوة حتى نفعل مثلك •
وبعد ان ارتشف شايه ، نهض وجلس على كرسي الحلاقة وهو
يقول بدعابة :

– نمرة صفر •

وابتسم محسن وهو يقول :

– كالعادة ؟

- نعم • العقال واليشماغ يستران •

ثم اضاف :

- لانني لا أحتاج الشعر ، اعطاني الله هذا الشعر الكث ؟

- كان الاولى به ان يعطيه لافندي مسكين •

- قلت الحق ، والله •

- اللحية تحتاج الى التحسين ايضا ، انها طويلة بعض الشيء •

- انت شاب ، ولكنها تجعلك متقدما في السن ، لو اردت رأيي

لحلقها كلها حتى تبدو شابا •

- أعوذ بالله ، لقد رافقتني هذه اللحية منذ ايام شبابي

الاولى ، ولم احلقها يوما ، ولا يمكنني ان اصور وجهي بلا لحية •

ثم ضحك وعاد الى القول :

- انها لحية حقيقية ، اعطيتها حقها ، وهناك لحي كاذبة لخداع

الناس •

وبدأ محسن عمله بسرعة وخفة • وكان ينتقل في دكانه ملتقطا

مقضا أو شرشفا أو ماكنة حلاقة •

ووسط انهماكه بعمله سأله الشيخ علي :

- هه ، لم نسمع أخبارك ؟

وردد محسن بسخط :

- كل شيء زفت في زفت •

توقفت سيارة انيقة بيضاء في رأس الزقاق • ونزل منها رجل
 خمسيني هو رئيس بلدية المدينة ، يصحبه مجموعة من الموظفين
 المسنين • والقي نظرة على الزقاق وهو يضع منديله على انفه حتى
 لا يستشيق رائحة الماء الاسن وغائط الاطفال التي تئيد عليه •
 وهمس في أذن موظف بدين يضع على رأسه سدارة سوداء :
 - اطلب منهم جميعهم ان يبنوا واجهات بيوتهم بالطابوق ، وان
 يرجعوا مترين للوراء حتى يتسع الشارع •

وتمخط في منديله بصوت عال ثم واصل اوامره :

- وقل لهم ليعجلوا في ذلك حتى تأتي لهم بالكهرباء ، وان لم يفعلوا سهدم بيوتهم ونطردهم وراء « الروف » ،

وتلفظ الرجل ذو السدارة بطاعة :

- حاضر ياسيدي .

واقرب منه موظف اخر كان يحمل بيده سجلا كبيرا وهمس في أذنه :

- اظنهم لا يملكون ثمن البناء .

وصرخ رئيس البلدية :

- الى جهنم . الناصرية كانت اجمل مدينة،ولكن هؤلاء جعلوها قبيحة بوجوههم ومنازلهم .

ثم فتح باب السيارة ودخل بعد ان أطبق الباب وراءه بفضب و اشار للسائق بأن يمضي .

وحمل الموظف ذو السدارة الاوامر الى سكان الزقاق .

وكان اغلبية الرجال في اعمالهم ، وخرج حميد مستفسرا ، وكان قد عاد قبل فترة قصيرة من السراي وهو يغلي حقدا وانفعالا . فقد ارسل مأمور المركز على جميع الحراس ووقفهم في صف طويل ، وكان معظمهم ممن تخطى الاربعين ، ورمته الحياة على ضفافها ، ولم يجد أمامه غير الحراسة ، فهي المهنة الوحيدة التي يقل عليها التافس .

وقال لهم محذرا :

- لقد طلبت منكم مرارا ان تمسكوا بهؤلاء السفلة الذين يوزعون المنشورات ويكتبون على الحيطان ، ولكنكم لم تفعلوا ذلك . وفي كل يوم تمتليء الحيطان بالكتابات ، والشوارع والازقة بالمنشورات ، هل اتم عميان ؟

ثم امسك برزمة من الاوراق ورفمها امامهم وهو يقول :

- انظروا هذه ، من وزعها ؟ امي خرجت من القبر وفعلت ذلك ؟

وكان يسند مرفقيه الى الطاولة أمامه ، بينما تتحرك يده من الرسغ حركات دائرية ، تصحبها حركات بأصابعه يحاول فيها اعطاء المزيد من الايضاح على أقواله . أما يده اليسرى التي امسكت بحزمة الاوراق فكان يضرب بها على الطاولة بين وقت واخر .

ألقى بالاوراق ثم شبك اصابع يديه أمام وجهه . وطرح جبينه عليها وهو يزفر ، ثم قال :

- لماذا لا تتحدثون ؟

وقابله الوجوم الاخرس مرة اخرى . ولكن الصيون بدأت تمتلى وجهه المقنع بنظاراته الطيبة ذات الاطار الاسود السميك ، حيث يبدو هذا الوجه وكأنه لا يمت يصلة الى عصية يديه واحتقان صوته .

ونطق أحد الحراس :

- ياسيدي نحن لا نعرف القراءة والكتابة .

وارتفع صوت مأمور المركز صارخا :

- وهل تحتاج المسألة الى معرفة بالقراءة والكتابة ؟ تلاميذ

يمسكون اوراقا مثل هذه ويرمونها في الشوارع .

ونطق حارس اخر :

- كل التلاميذ ياسيدي يمسكون اوراقا ، ويقرأون في الليل

تحت مصابيح الكهرباء في شوارعهم !

- احرص ، اتم حمير ، سأضعكم في السجن ان لم تمسكوا

بهؤلاء السفلة ، انهم يشتمون الملك ، ويشتمون الحكومة ،

افهمتم ؟

وكان حميد دائخا وهو يقف في الصف الامامي ، يزم شفتيه

دون ان يجد كلمة يتفوه بها . ولكن نظراته لم تسحب من وجه

مأمور المركز الثائر ، واكتشف ان امامه نظارة طيبة اخرى من نفس

الطراز ، ولكن اطارها ادق قليلا . وكان بين وقت واخر يرفعها

ويضعها على عينيه بدلا من الاخرى . يفعل ذلك بألية دون ان

يعرف حميد لماذا يفعل ذلك وما الفرق بين هاتين النظارتين .

وعاد مأمور المركز ليقول بهدوء :

- اريد ان تراقبهم جيدا ، القوا عليهم القبض وجثوا بهم

الينا ونحن نحقق معهم .

ونطق حارس من الصفوف الخلفية :

- قل لي ياسيدي هل نحن حراس لنمسك بالتلاميذ ؟ أم
باللصوص ؟

ورفع المأمور صوته من جديد :

- لافرق ، كلهم لصوص ، أفهمت ؟

واطرق الرجل حائراً لا يدري ماذا يقول ، بينما بدأ حميد
يتأمل ساعدي مأمور المركز المتلثين ، والساعة التي تؤطر معصمه
ذات الحزام الجلدي الاسود ، كما تأمل الخاتم اللامع الذي يندس
في بصر يده اليسرى ، واتبه الى شفته السفلى الممتلئة ، وتأكد انها
التي تسحرك فقط عندما يتكلم ، وتبدل مرتحية الى اسفل ، وكلما
صمت يحاول اطباقتها على شفته العليا ، ولكنها لا تنطبق باكمال
فتظل اسنانه الصفراء تطالمهم طيلة فترة تحديقه الى وجوههم وحديثه
معهم .

وبعد ان ضجر منهم صرفهم وهو يشيخهم بالسباب والشتائم .

* * *

وخرج حميد الى السوق بعد ان تناول فطوره . ومر بالشيخ
علي وجبار ، واخبرهما بطلب رئيس البلدية ، ثم حدث الشيخ علي
عن مأمور المركز وما طلبه منهم ، وهو يتساءل بحيرة :

- ماذا افعل لو وجدت بينهم ابني ؟ او ابنك ؟ او ابن رجل
فقير آخر ؟

- ان خوفهم من التلاميذ كبير ، فأغلبهم يعملون في السياسة .
- كل يوم أقول سأستقيل غدا ، ولكن اين اذهب ؟ والعائلة تريد مصروفا ، وحسنة تزداد حالتها الصحية سوا .

* * *

امتلاً الزقاق بأكوام الطابوق الذي تحمله الحمير البيضاء الكبيرة من معامل الطابوق الواقعة خلف « الروف » .

لقد اضطر سكان الزقاق الى بيع ممتلكاتهم ، حلى ذهبيّة وفضية ، وسجاجيد صوفية . من اجل توفير ثمن الطابوق . ولما كان علو الجدار غير مشروط فقد شيدت معظم الجدران واطئة . وقد قال جبار مطلقا :

- هنا العلو يكفي ، لتكف شر رئيس البلدية فقط .

وقد التزم هاتف بناء عدد كبير من هذه الواجهات ، بينها واجهة بيت جبار وحميد والشيخ علي .

وساعد سكان الزقاق البنائين في حمل الطابوق ، وتهيئة الطين، وشارك في هذا حتى الاولاد الصغار ، فبدأ الزقاق وكأنه خلية حية تنبض بالعمل والتعاون .

* * *

واكسب الزقاق شيئا فشيئا هيئته الجديدة ، حيث ازداد عرضا واصبح ضعف ما كان عليه ، كما اختفت منه الجدران الطينية والقصية ، وبدأ مشرعا امام الشمس والهواء .

٧

كان النهار في منتصفه ، وقد بدأ الحر يشتد ، ويحكم سطوته
على المدينة القاحلة • وكانت الظهيرة لاتسمح لاحد بأن يمد رأسه
من باب بيته لكن الاطفال لا يبالون بها وبلهيبها حيث ينافلون اباهم
ليخرجوا ويتركوهم ينطون في قيلولة الظهيرة ليتجمعوا في افياء
البيوت •

وكان عباس حزينا ، عيناه تبحثان عن نهلة في انتظار ان تفتح
بابها وتمد رأسها • وكلما فعلت ذلك والتقت نظراتهما يرتجفان
ويمسك بهما ذعر مريب •

لقد كتب لها ورقة صغيرة استلها من دفاتره ومما جاء في
ورقته قوله :

عزيزاتي ونور عيني نهلة

لا أدري ماذا أفعل ، انني حائر ، فوالدي ضربني ومنعني من
التحدث معك ، وقال انه سيقتلني ان اقتربت منك .
حييتي .. ارجوك ان تصبري قليلا حتى انهى التاويمة
واتزوجك .

المخلص عباس حميد

د

وقد طبق الورقة ثم اقترب من الباب ورامها لها . وبعد
لحظات خرجت والتقطتها ، واسرعت الى غرفتها لتلتهم حروفها بتلذذ
وشوق .

كان الزقاق قد اتسع ، وبدأت بعض النسوة يمثلن تهديدات
مفتش البلدية ، ويتجنبن رمي الماء الاسن فيه . لكن غالية كانت
تردد :

— أين نرّميه ؟ هل نشربه ؟ كانت في الزقاق ساقية لكنها اندثرت
عندما بنينا الواجهات .

واقترح جبار على سكان الزقاق ان يمدوا حفرها ويوصلوها
بالمجرى الكبير لكنه انتبه الى مسألة مهمة وهي ان المجرى الكبير يقع
في الجهة الثانية من الشارع مما يتعذر ايصال الساقية به .

وقد قر القرار على شراء ماسورة عريضة تخترق الشارع •
وتفرغ الماء من ساقيتهم في المجرى • وتم جمع ثمنها بالتساوي من
بيوت الزقاق •

نهض عباس ثم دخل بيته • كان حائرا لا يدري ماذا يفعل ،
والقى نظرة على والده الممدد في الفيء على الحصيرة • واخرى على
أمه الممددة جواره على حصيرة ثانية وفحيح صدرها يتردد بصوت
سموع •

نظر اليها بألم فدمعت عيناه ، وفكر ، ماذا لو ماتت ؟ اي شيء
يبقى في البيت ؟ ومن يحميه من غضب ابيه ؟ من يطبخ له الطعام ومن
يدس في جيبه قطعة العشرة فلوس كل صباح ؟

وعجز عن الاستمرار في الوقوف ، جلس على التراب ومدد
ساقه أمامه • واستمر في النظر اليها ، ان تموت فهذا يعني ذهابها
الابدى ، تماما كما ذهب ياسر ولم يعد ، غابت تكشيرة اسنانه ،
وشعره الناعم المنسدل على جبينه ، غابت مقالبه الصغيرة الحبيبة التي
لم يكن يكف عنها رغم مرضه وهزاله • مات ياسر دون ان يستأذنه
وراح الى الابد •

زحف ببطء حتى استقر جوار أمه ثم احتضنها ، ودفن وجهه
في صدرها وانفجر باكيا •

وفتحت الام عينها وسألته بخنو وهل علم :

— مالك ؟

واختق صوته بالنجيب ، وجاهد من أجل ان ينتزع كلمة
من صدرها اللاهج .

- ماما ، لا تموتي مثل ياسر .

ونطت دموعها من كلماته ، وحاولت ان تنهض قليلا لتصبح
قادرة على النطق براحة .

- اسم الله عباس ، ماذا بك ؟

واضافت وهي تمسح بيدها على شعره :

- انني حية أمامك . انظرني ، انت رجل يا ولدي فلم البكاء ؟
ها انهض واغسل وجهك ؟

وخرج كامل من الغرفة على صوت بكاء اخيه ، وتساءل :

- ماذا حدث ؟

ونظقت الام :

- لا شيء يا ولدي ، لا شيء ، اللهم صل على محمد وآله .
وصحبا حميدا ايضا ، وردد بضجر مخاطبا عباسا :

- مابك ؟ مع من تشاجرت ؟

وبادرتة حسنة بالجواب :

- لم يتشاجر .

ثم استخثت عباسا :

- ها انهض ، ضع الماء على وجهك واطرد الشيطان .

فاستجاب لطلبها ، انذاك التفتت الى زوجها وهمست له ببطء

وعتاب :

- لا تصرخ فيه قبل ان تعرف اي شيء •

- ما به اذن ؟

- يتصور انني سأموت مثل يا ••

ولم تكمل نطق الاسم ، اذا اختنقت بالعبرة ، وظل وجهها

الشاحب مصلوبا باثنا •

وعلق حميد والنعاس ما زال باديا عليه :

- اذكروا الله ، ما الذي ذكركم بهذه الامور المحزنة في عز

الظهيرة ؟

ثم نادى ولديه واجلس كلا منهما على احدى ركبتيه وقال

لهما بصوت ناصح :

- كل الناس يعرضون لكنهم يشفون بعد ذلك • ووالدتكما

ستشفى ان شاء الله ، الطيب اخبرني ان حالتها سهلة •

والتفت الى حسنة يسألها لتؤكد ما فاه به :

- اليس كذلك ؟

وتمتت وهي تطأطأ رأسها :

- نعم •

ثم اضاف وهو ييش في وجهيها :

- والان جاء وقت الشاي فمن يحضره ؟

وقال كامل :

- سأحضره أنا •

وهب واقفا مبتعدا عن حضن ابيه ، بينما استمر حميد في

مخاطبة عباس :

- ليس لي احد غيركما انت واخوك ، كنت اعتمد على ابن عمكما عبد لكنه قتل ، ولا احد اخذ بثأره ، الرعب يكمن افواهاً ويفل ايدينا ، ان بإمكانني ان افعل اشياء كثيرة لكن من لكم بمدي ؟
وكانه وجد في هذا البوح ما يخفف من ألمه ، فاستمر دون ان يهجمه ابتاه ابنه له :

- اتنا نجاهد من اجل لقمة خبز . ولا ادري متى يظهر لسي لص من وسط الظلام ويفرس خنجره في ظهري ، وان لم يجد ما يسرقه سيستولي على بندقيتي كما حدث لمسعود الله يرحمسه ، وفوق هذا كله تهديدات مأمور المركز ، امسكوا الطلبة ، تابعوا من يكتب على الجدران ، واصحاب الدكاكين يوصوننا بدكاكينهم ،
والمسافرون يوصوننا بيوتهم . . . و . . .
ووقف كامل امامهما وهو يعلن :
- لقد وضعت الشاي على النار .

* * *

كانت ليلة مظلمة ، لا يسمع فيها صوت ، وقد اوى سكان الازقة الجانية الى بيوتهم مبكرين ، حتى يطيقوا النهوض مبكرين ايضا من اجل اللحاق بأعمالهم .
وكان حميد متكئا على الحائط وهو يجلس على دكة احد البيوت ، في مكان يسمح له بأن يراقب الزقاق كله . لقد جلس

هناك من اجل ان يلف له سيكارة ويريح قدميه قليلا . وبعد فترة قصيرة دخل الزقاق رجلا ، وقف احدهما جوار احد الحيطان بينما اخذ الثاني يتلفت يمنة ويسرة دون ان يلحظ حميدا القابع فوق دكة الباب ، ثم عاد الى زميله و اشار له بيده ، وفورا بدأ بالكتابة على الجدار بفرشاة يفرسها في علبة اصابع صغيرة استخرجها من جيبه . ظل حميد يراقبهما وهو فاغر فمه ، ولا يدري ماذا يفعل . ان بندقيته تمتد فوق ركبتيه ، والاوامر صريحة برمي هؤلاء . انه يستطيع ان يجندل احدهما بأول اطلاقه . ويستطيع ان يجندل الثاني باطلاقه اخرى وقبل ان يستطيع الفرار ، ولكنه لم يفعل شيئا من هذا ، وكان ما يحدث أمامه مجرد حلم ، وحاول ان يبحث عن حل سريع للمسألة . أمسك بندقيته وهب واقفا وهو يصيح :

— مكانك ، قف .

فتجمدت يد المسك بالفرشاة ، وتوقف صاحبه عن المراقبة ، وظلا مشدوهين ، وكأنهما وقعا في كمين . وأخذ حميد يقترب منهما ، وبندقيته مصوبة اليهما ، وعاد يجار فيهما :

— ماذا تفعلان ؟

ولم يأتيه اي جواب ، وعندما اصبح على مقربة منهما نظر الى الذي كان يأخذ دور المراقب . وفزر فمه دهشة ، انه هاتف زوج ابنته .

وحاول ان يتماكك ، ويجد حلا سريعا لهذا المأزق الئذي
لم يتوقمه • وخاف من ان يخرج احد سكان البيوت على صوته ، او
يمر احد العابرين فيراهم في ذلك الوضع ، ويصبح انذاك مضطرا
للقاء القبض عليهما ، ووجد كلماته تنطلق من صدره أمره ؟

- ها اذها ، لا تلتفتا ابدا •

ثم اخذ الفرشاة وعلبة الاصباغ منهما ، ورماهما في المجرى ،
بعد ذلك اشعل عود ثقاب ، وتأمل الكتابة ، كانت كبيرة وبارزة ،
وتمنى لو كان بإمكانه قراءتها •

وبخفة خلع يشماغه • واخذ يمرره فوق الصبغ الئذي حتى
خلط الحروف ببعضها ، ومن ثم انسحب من المكان •
وبعد خطوات نفخ في صافرتة ، فردت عليه صافرة اخرى
قريبة •

٨

تحدث حميد للشيخ علي بما راه ، ابتم الشيخ علي ابتسامه
العارف بالامر وقال :

- لهاتف نشاط سياسي وانا ادري به • لكن ما الذي نستطيع
ان نفعله له ؟ انه شاب ناضج ويقدر الامور •

وتساءل حميد باستغراب :

- لماذا يورطنا ويتزوج نجية اذن ؟ افترض ان الحارس كان اخر غيري فما الذي يحدث ؟ يرسلونه الى السجن فورا ، وعشر سنوات اقل حكم يناله . هذا اذا لم ينل عشر رصاصات في رأسه .

- والله يا حميد لا ادري ، الامر محير !

- هل تستطيع ان تتحدث معه ؟

- وما الذي اقول له ؟ أنا وانت عجوزان لاتقوى على شيء ، فذع الشباب يفعلون . لا تستغرب من كل هذا ، ان ولدي يعمل في السياسة ايضا ، وغدا سيلحق به عباس وكامل . ان محيطنا فقير ، وأبناؤنا عانوا من كل المصائب ، وهم مهياؤن للعمل في السياسة .

- اتدري ؟ كانت الكتابة ندية فقتت بمسحها بيشماغي ، ولولا ذلك لربما سجنوني أنا ، لان الكتابة في منطقتي واثاء نوبة حراستي ، ولكن الحمد لله لم ينتبه اليها احد في اليوم التالي .

وكانا آنذاك يثرثران وهما يجلسان على مبعدة من رواد الجامع الآخرين ، وقد اديا صلاة الغروب فمنحهما ذلك الاطمئنان والرضى ، وبعد ان باحا لخالقهما بكل ما يحمله صدرهما من مشاعر ومخاوف والام .

واخذ المصلون يفادرون الجامع فرادى ومجموعات ، فالتفت الشيخ علي الى حميد يسأله :

- اتقادر ؟ أم نذهب ونجلس قرب الشيخ بعض الوقت نستريد من تعلمه واحاديثه ؟

- حراستي هذه الليلة للنصف الثاني من الليل ، ولا بد ان ارتاح قليلا ، ثم ..

واحتق صوته برهة ثم واصل القول :

- ثم ان حسنة وضعها يتردى • ولا اريدها ان تموت الآن •
وازداد صوته ألما وانكسارا وهو يضيف :
- أحسنى انها ستموت •

- لا تأخذك هذه الهواجس السوداء • حسنة هذا وضعها منذ ان رأيتها •

ثم نهضا ، وبدأ كل منهما بالبحث عن نعليه بين صفوف مسن الاحذية التي خلعها المصلون • وقد عثر الشيخ علي نعليه أولا •
التقطهما وحملهما بيده حتى اصبح خارج المنطقة المفروشة فطر حهما على الارض ودس قدميه فيهما •

وبعد ان فعل ذلك وقف في انتظار حميد ، وعندما لحق به غادرا الجامع •
قال حميد :

- تصور حتى عباس كأنه حدس هذا الموت • والبارحة ارتمى على صدرها باكيا وهو يصرخ لا تموتي مثل ياسر يا أمي •
- اذكر الله يا حميد ، كل الناس يمرضون ، والبعض يطول فيهم المرض ، ويعجز الشفاء ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلتفت اليهم في الاخير ويشفيهم بلمحة عين • دعني اخبرك بشيء جديد •
- ماهو ؟

- العريف مظهر طلق زوجته الثانية ، وابقى على ام ياسر •

- حسنا فعل • أم ياسر امرأة طيبة ومنكوبة وعليه ان يجبر
الكسر في حياتها بفقدان ابنها • قفز حميد بركة ماء ، ثم بصق على
الارض وقال بسخط :

- متى يبلطون الشارع ونخلص ؟

ولم يعقب الشيخ علي على كلامه • واستمر في المشي ، وكانا خلاله
يسملان ويسملان •

وعندما وصلا الى مدخل زقاقهما تساءل حميد :

- ماذا افعل بشأن هاتف ؟ ارشدني الى طريق ؟

قال الشيخ علي وكأنه يريد ان يحسم الحديث :

- لقد تكلمت معه قبلك ، وكان مصرا

- وما العمل اذن ؟

- السكوت •

* * *

وعندما دخل حميد بيته وجد نجية وزوجها هناك • وكان
هاتف يحمل طفله ويناغيها بحب • اما حسنة فكانت ممددة على
سريرها الجريدي وجلست نجية على الحافة جوارها • بينما يتلأأ
في باحت البيت ضوء الفانوس النفطي الملق بجذع النخلة •

وألقى حميد تحية المساء ، ثم اخذ الطفلة من ايها وقبلها على
خدها ، بعد ذلك أمسك بها من ابطيها ، ورفعها الى اعلى ثم انزلها
ببطء ، واعد العملية عدة مرات ، والطفلة تكرر فرحة . وعندما
تعب أعادها الى أمها و جلس على الحصيرة المفروشة على الارض
وهو يقول بشكوى :

- الحر ، الله يلغنه .

ونظقت نجية :

- الله يساعد أمي عليه .

وعقبت الام بصوتها الليل :

- الاغنياء عندهم مراوح وماء مثلج فلا يحملون همه مثلنا .

وهمس حميد :

- الحمد لله ، هذا ما كتب لنا .

ثم التفت الى هاتف متسائلا :

- اليس كذلك ؟

واحس هاتف بمغزى تساؤله . وحاد في اختيار جواب مقنع ،
وتلكأ قليلا قبل ان يقول :

- هناك من هم افقر منا بالتأكيد ، ولكن بإمكان الجميع ان
يعيشوا في وضع افضل لو كان هناك عدل .

وارتاح حميد لهذا الحديث فواصل المناقشة :

-ولكن الله خلقنا اغنياء وفقراء ؟

- اغنياء لصوص ، يسمنون من دماثنا ؟

- انها ارادته جل جلاله •

- اغنياء يسلكون احقر السبل ، خدم للانكليز وعمالثهم ،

اقطاعيون وتجار ومهربون ، وكلهم يحميهم القانون •

وعلق كامل الذي كان ينصت لحدثهما :

- لوطبتت الشريعة الاسلامية لما بقى فقراء ، نحن ببيدون عن

ديننا وهنا المصيبة •

وتأفف حميد :

- وماذا نفعل ؟

قال هاتف :

- نحرض الناس ، نجعلهم يعرفون هنا ننبههم الى سوء الحالة

التي يمشون فيها واسبابها •

وهز حميد يده ساخرا :

- كيف ؟ بالكتابة على الحيطان ؟

- بالكتابة على كل شيء ، على الحيطان والاوراق والتحدث مع

الناس ، بكل السبل •

- والنتيجة السجن أليس كذلك ؟ واقل شيء عشر سنوات ؟

- لكن مائة •

ووجد كامل فرصته في القول :

- لنقرأ سيرة الصحابة ، وكل المسلمين الاوائل ، ولنعرف

كيف صدوا بوجه الكفار حتى انتصرت كلمة الله •

وفرح حميد من حماس ابنه وقال يخاطبه :
- لقد امتحن الله ايمانهم يا ولدي ، ولكن ايمانهم لا يتزعزع ،
بارك الله فيك .

وهنا جاءهم صوت نجية وهي تسأل زوجها :

- هل نذهب ؟

ورد عليها والدها :

- انتظري بعض الوقت ، عندي حديث قصير مع هاتف . لم
المجلة ؟

- أم هاتف وحدها في البيت .

ورجتها أمها :

- قبل ان تخرجي حضري العشاء لوالدك واخوانك . قدر الرز
موجود واللبن والفجل .

- أمرك .

وسلمت ابنتها الى كامل :

- خذ .

وتناولها كامل . قبلها على جبينها ، ثم اجلسها في حضنه . أما
الاب فقد اقترب من هاتف وقال بهدوء :

- اسمع يا ولدي .

ثم اتبه الى كامل الذي كان يصني لكلامه فقال له :

- ابني ، اخوك في الشارع ، اذهب وناد عليه حتى يتمشى معنا .

ونهض كامل دون ان يطلق بكلمة وخرج وهو ما زال يحمل
ابنة اخته في حضنه ، بينما واصل حميد التصح :

- هاتف ، أنا لا اريد ان اتدخل في حياتك ، لكن ما تفعله غير
صحيح . البارحة كانت تنتظرك نتيجتان ، أما القتل او السجن . كنت
على مقربة مني ولم اعرفك ، ولدي أوامر بالرمي ، فما الذي يحدث
لو قتلتك ؟ سترمل زوجتك وتصبح ابنتك يتيمة ، من اجل ماذا ؟
وبلع ريقه ليواصل القول بحماس اشد :

- انت تسير في درب الخطر . الله سترك البارحة ، وربما
تكون عاقبتك وخيمة في المرة القادمة ، اتنا لا نستطيع ان نقف بوجه
احد ، علينا ان نشبع بطوننا اولاً .

وببطء تسرب صوت هاتف قائلاً :

- أنا اقدر مشاعرك يا عمي ، لكنني لا استطيع ان اسكت ، انني
أحس بكل شيء ، ولا اريد ان تتكرر حياة الذل والهوان على
ابنائي .

- كتابتك على الحيطان لن تغير شيئاً .

- عندما يقرأ الناس ما نكتبه يحسون بالاطمئنان ، يعرفون ان
هناك من يدافع عنهم ، يتبهون لما يدور حولهم ، كل الشعوب بدأت
معاركها التحريرية هكذا .

ثم سكت بعض الوقت باحثاً عن صدى كلماته ، فوجد التأفف
وعدم الاقتناع مرتسمين على وجه حميد . فعاد الى الكلام :

- لم اكن اعرف كل هذا ، لكنني انتهت اليه تدريجيا . المدرسة المسائية افادتني ، مملعون طييون لا يخافون من شيء ، يفتحون قلوبهم لنا ، اتدري يا عمي انني اجد يوميا عشرات العمال البسطاء ، سواعد قوية تهز الجبال ، ولكنهم هربوا من قراهم ، لم يتحملوا الظلم . يبيعون جهد يومهم مقابل ثلاثة دراهم او اربعة في احسن الاحوال ، اتكلم معهم ، استخفهم لان يعودوا الى ارضهم حتى لا يضيعوا وتبلمهم المدينة .

- ولماذا تريدكم يعودون ؟ من اجل ان يقتلوا مثل عبد ؟

- عبد ليس وحده الذي قتل ، هناك عشرات الفلاحين دفنوا احياء ، الاقطاعيون يملكون حتى سجونهم ، يبدلون المتصرفين والقائمقامين والحكام ومديري الشرطة ، ان لم يمجيبهم تصرفهم .

وجاءهما صوت نجية وهي تحمل صينية الطعام :

- الاكل جاهز ، والكلام له مجال اخر .

وبشّ والدها في وجهها وهو يرد :

- اذا حضر الاكل بطل كل شيء .

أما هاتف فقد قال منها الحديث :

- ثم لا تنس يا عمي ان والدي عاش ومات غريبا هنا ، شرذوه من قريته وارضه واهله ، وكان املة ان يعود ، ولكنه مات دون ان يحقق امنته .

كانت البلاد تمور بالحقد • الاصوات تعالي كاشفة كواليس
 السياسة وما يدور فيها • ولم تترك وسيلة الا ولجأت اليها المعارضة من
 أجل اسماع صوتها • ولكن السلطة تجابه كل هذا بقسوة •
 المعتقلون يزدادون ، والسجون تمتلئ ، لكن النداء لم يفقد صموده
 واصراره •

وكانت هذه الامور انعكاسا لما يدور في الساحة العربية كلها
 بعد ان تملل الشعب العربي من الانظمة الرجعية التي تكبله وتشدّه
 الى المشاريع والاحلاف منذ ان نجحت في تمرير خيانتها الرديئة في
 فلسطين •

وعندما جاء تأميم النفط في ايران اصبح علامة ضوء وتفاؤل ، اذ انه كان اول ضربة تسدد الى كيان بريطانيا ونفوذها في المنطقة ، واحست الحركات الوطنية بدماء جديدة تسرى في عروقها ، وبدأت الاضرابات في المصانع والمؤسسات ببغداد والبصرة بوجه خاص ، وازدادت حمى الاعتقال والتكيل •

واصبح الناس يلاحقون ما يجري ويتهايمون حوله • ويقرأون بلهفة النشرات السرية التي يجدونها في ابواب بيوتهم او دكاكينهم • أما الشيخ علي فكان يتزود بالمعلومات عند زيارته لكدان محسن الحلاق التي اصبحت نصف شهرية • وقد اوقفه ذات يوم احد المخبرين السريين وسأله :

- الاتجد غير هذا الملحد لتحلق عنده؟

- اعتاد راسي على يده • منذ سنوات وانا زبونته •

- حسنا ، انت رجل مؤمن تحدث معه عله يتوب ، ويترك هذه السفاسف؟ ماذا يريد ان يصبح؟

- لماذا تسألني هذا السؤال؟ كل واحد ادري بنفسه •

- لكنك ربما لا تعرف من هو؟

- اسمع ياخي ، محسن رجل له عائلة كبيرة وهميلهم الوحيد فماذا يفعل لو لم تحلق عنده؟

- هل انت رحيم لهذا الحد؟

- ولماذا لا؟

- لا ادري ماذا اصاب الناس ؟ يعطفون على هذا المجرم ؟ ماذا يريد ان يصبح ؟ وزيرا ؟ مديرا عاما ؟ وهو مجرد حلاق فقير ؟ وليت الامر يقف عند الحلّاقين فقط ، وانما هناك تجارون وبعاعة صحف ومعلمون ، كلهم مثل محسن . أوه . انهم يستحقون الشنق حتى نغمض عيوننا مرتاحين .

ثم بصق وانسل مبتعدا . وقد روى الشيخ علي الحكاية لمحسن الحلاق بعد ايام فما كان منه الا ان ضحك وقال :

- عرفت كيف ادبر اموري ممة .

- وكيف ؟

- اسلمه ربع دينار صباح كل يوم ، حتى لا يظل مرابطا أمام الدكان ويقطع رزقي . انه المكلف بمراقبتي ومراقبة الناس الذين يزوروني .

وضحك الشيخ علي من قلبه وقال :

- ربع دينار احسن حجرة في قم هذا الكلب .

* * *

- دلف الشيخ علي الى بيته . كانت زكية في باب كوخها ، وطاسة النشوق بيدها، القى عليها تحية المساء وقبل ان يدخل غرفته سألها :

- اين ام عزيز ؟

- في بيت اخيها هي وكوثر .

- وعزيز؟

- لم يعد بمد •

واضافت :

- ذهبت لتطمئن على ام عباس •

خلع الشيخ علي عباةه ومن ثم يشماغه وعقاله • ثم خرج من
الغرفة متجها الى المسئلة ، ثنى ركبتيه ، وفتح الصنبور بتمهل ،
والبسمة تتردد من فمه بصوت خافت • وبدأ يتوضأ • وعندما لا حظته
زكية تساءلت :

- تصلي في البيت اليوم؟

- نعم لم استطع الذهاب الى الجامع • رافقت جازا وتكفلته في

شراء راديو •

- وماذا يفعل به؟

- للمقهى •

- تقول غالبية ان في المقهى كل شيء حتى الراديو •

- نعم ، ولكن امرأة ضربته بطابوقة وحطمته •

وضحكت زكية ثم تساءلت :

- أبا عزيز ، هل تسخر مني؟

- لا والله • هكذا اخبرنا هو قبل فترة • قال انها اخت المنسي

خضير حسن الله يرحمه ، خضير مبطورة كما يسمونه الا تذكرينه؟

- نعم

- كان صوت اخيها يتردد من الراديو فلم تحتمل سماعه، اصابها
مس من الجنون •

- كفانا الله الشر •

وعادت لتغرس انفها في طاسة نشوقها • تستشق السائل الحاد ،
ثم تمطس عدة مرات وراء كل نشقة وهي تتمتم :

- آه •• ارتاح رأسي •

أما الشيخ علي فقد واصل الوضوء ، وبعد ان انتهى دخل الغرفة
من جديد ، واستخرج سجادة الصلاة ، فرشها على الحصيرة ، ثم يمم
وجهه باتجاه القبلة وبدأ يصلي •

وعندما دخلت خيرية تبعتها بكوثر بادرتها زكية بالسؤال :

- ها ؟

فأجابت خيرية بحزن :

- لا امل منها •

ورفعت زكية وجهها الى السماء بابتهال ورددت من قلبها :

- يا الهي ، اسمع دعاء امرأة وحيدة مقطوعة ، واحفظ حسنة

من اجل زوجها واولادها ، ابقها خيمة تظللهم !

* * *

سأل الشيخ علي ابنه بشيء من العتاب :

- ما الذي اخرك لهذا الوقت ؟

- كنت مع اصدقائي • نقرأ في المقهى •
- وهل المقهى للقراءة؟
- هناك جناح للطلبة • مخصص للقراءة •
- والطاولة؟ والدومينو؟
- ممنوعة •
- ولماذا فتح المقهى اذن؟ هل هو مكتبة عامة؟
- والله • مقهى صالح • اذا لم تصدقني اذهب وشاهده •
- الا تقرأ في البيت احسن؟ كل المقاهي مزروعة بالمخبرين •
- صاروا بعدد الذباب • يتصيدون الكلمات من افواه الجالسين ، واتسم
طلبة شباب •
- نعرفهم واحدا واحدا •
- وتمتم الشيخ اخيرا كالمغلوب على امره :
- الله يرضى عنك •

* * *

بعد ان غادر عزيز المقهى مشى باتجاه النهر • وجلس بعض الوقت
على احد المساطب • وراقب من بعيد العمال الذين يواصلون تشييد الجسر
الجديد • كما انصت الى اغاني الصيادين البعيدة وهم يسحبون
شباكهم الكبيرة الى الشاطئ •

تنفس ملء صدره فأحس براحة عميقة • أنه وحيد تماما • لا
أحد يفهمه • أنه محتج لكن لا أحد يلم بأبعاده احتجاجه • كما أنه مبهور
بقراءاته في التاريخ العربي • تأخذه سيرة الرجال الكبار الذين
صنعوه • ويخالهم أمامه واحدا واحدا • قبل لحظات فقط فرغ من
قراءة كتاب عن موسى بن نصير ، يسترجع مؤلفه حياة هذا الفارس
الذي طهر المغرب العربي من جيوش الروم ليمثل اصرار الأمة
وقدرتها على الانتصار ، ولم الشمل •

وكرر على أسنانه بحقد مما يحدث الآن ، وفكر في كتابة قصيدة
أكبر لسيرة هذا الثائر العربي ، وحاول ذلك عندما استخرج قلمه
وبدأ يكتب وسط الهدوء الذي أعقب توقف الآلات والرافعات عن
العمل في الجسر واتسحاب العمال إلى بيوتهم •

ومما كتبه :

أيها الراية المشرعة

للفتح والنار والاباء

تعرف صليل سيفك ربوع الحجاز والشام والعراق

وتطرب لحمحة جوادك روايي مغربنا العربي

أيها الفارس المتألم مثل حلم عربي

أيها القائد الذي لم يهزم له جيش قط (*)

(*) هكذا كان يلقب موسى بن نصير •

تعال الينا . . الى ارضنا .
لنعيد ما سبي ، ونبني ما تهدم
تعال .

كلمات مبشرة كثيرة يضمها دفتر يحمله معه ليسجل به هذه
الخلجات كلما داهنته .

كان للاحداث وقعها في نفسه . ويهرب منها بالمزيد من الاحلام .
احلام تعانق مدنا ونساء واتصارات والغازا ، قبل اسبوع فتح حوارا
مع هاتف . وقد قال له :

- الذين تدافع عنهم رضوا ان تكون فلسطين لليهود .
وقد رد هاتف :

ان الوضع الدولي كان يتطلب هذا .

- لكن الوضع العربي ، عواطف الناس ، طموحاتهم لا ترضى
به ، ألم تفكروا بهذا ؟ ألم تعرفوا تاريخ هذه الامة وصمودها بوجه
الغزوات ؟

- انت تحلم يا عزيز .

- ولماذا لا ؟ انت اكبر مني سنا يا هاتف ، لكنك لا تقرأ ،
ومعلوماتك احادية الجانب وتردد ما تسمعه فقط .

- وهل هناك خطأ فيه ؟

- نعم يجب ان توسع دائرتك .

- انت مثلا . هل تمثل جهة سياسية ؟

الآن لا ، ولو كانت الجهة التي تمثل طموحاتي موجودة لما
ترددت عن الانتماء اليها ، انني مشبع بتاريخ هذه الامة . اجد في
مواقفها وصلابة رجالها ما يملأني بالتفاؤل ، وبجمل نوري السعيد
والملك وعبدالله مجرد اقزام صفار سيمرون كالنكتة .

وتتمم هاتف :

- ولكنها نكتة مرة ؟

- مع هذا .

- حسناء والاحزاب القائمة اذن ؟

- احزاب المعارضة هي احزاب وطنية بلا شك . ولكن قربي
منها او بعدي يتحددان من قضية فلسطين . جرحها كبير في اصماقي .
كيف تستلب ارض لنا وتضيع ؟ ولذا فمهمتنا كبيرة في استردادها .
مثلا للحزب الوطني الديمقراطي موقف محمود . ولحزب الاستقلال
كذلك .

وتسأل هاتف بلهجة الباحث عن المزيد :

- وكيف ؟

- اصدر الاول بيانا استكرر فيه قرار هيئة الامم المتحدة بتقسيم
فلسطين ، واعطى للامة العربية الحق في مقاومته بجميع الوسائل واعتبره
نقطة تحول في تاريخ جهادها . والثاني اصدر كذلك بيانا طويلا دعا
فيه الدول العربية الى قطع علاقتها بدول الاستعمار ، وقال فيه ايضا :

ان الضمير العالمي قد سجل على نفسه هذا العار في أظلم حكم
عرفه التاريخ • هذان هما الحزبان الوحيدان اللذان تصديا للقرار •
- اذن فهما يمثلان طموحك ؟

- لا ، اجد ان الحركات الثورية الحقيقية تنشق دائما نتيجة
حاجة ماسة في تاريخ الامم وفي هذه الفترة او تلك ، وكل ما عداها
لا يبقى او يستمر •

واحس عزيز انذاك انه قد عبر عن الكثير من مشاعره في حوار
ذاك مع هاتف • والان هاهو وحده يمسك بقلمه ، ويستمع الى غناء
الصيادين وهم يقتربون من الشاطي ويشدون الشباك اليه •
بالامس اخبره احد اصدقائه ان ماجدة قد زفت الى خطيبها ،
وانها تركت المدرسة ، وهكذا سيغيب وجهها عنه ، وربما سيراه بعد
شهور بمدينة جبلى ووجهها مترهل او ملون • وزفر بحرقه وهو
يردد :

- ابدأ في القلب انت مضيئة

أيتها الزهرة التي سرقتها من حقلتي الايادي

من حقلك ان تسخطي علي

فأنا راع غافل

وبستاني نسي سقي زهوره •

ووجد كلماته هذه جميلة عندما اعاد تردادها فسجلها في دفتر
قبل ان ينساها وهب واقفا .

* * *

قالت خيرية

- ابا عزيز ، زكية ترغب في الذهاب الى كربلاء لزيارة قبر
الحسين .

وسألها الشيخ علي :

- وحدها ؟

- لا ، مع غالية وجبار .

- الله معها . هل عندها ما يكفي ؟

- لا أظن . لو أعطيتها دينارين مثلا .

- حسنا

ثم مد يده في جيبه ، واخرج حافظة نقوده ، واستل منها
الدينارين وقدمهما الى زوجته . فبادرته بالقول :

- ستكسب الثواب في دينك واخرتك .

القسم الخامس

العيون تتطالع

ما ان حل عام ١٩٥١ وجاء نوري السعيد بوزارة جديدة حتى حاول من جديد ان يشد العراق بتحالف جديد مع بريطانيا ليكون بديلا عن معاهدة بورتسموت المحيطة .

وكان الناس يتبادلون الاحاديث عن المعاهدة المرتقبة ، وقد تسربت الى « الناصرية » نسخ من جريدة « لواء الاستقلال » وهي تحمل نص البيان الذي وجهه عدد من الشخصيات الوطنية الى الشعب يحذرون فيه مما يخطط في الخفاء . وقد انتشرت هذه النسخ في اوساط الطلبة والموظفين وصغار الكسبة . وما جاء فيه :

(ان اعظم نعمة نبتيها هي نعمة السلام ، والتخلص من الاستعمار ، والتمتع بحياة سياسية حرة ، والحصول على استقلال

كامل غير منقوص ، وضمان تمتع الشعب العراقي بحقوقه الدستورية التي ما زال محروما من التمتع بها ، وربة منا في تحقيق ذلك نعلن ان الانحياز الى أية كلة من الكتلتين المتنازعتين سواء اكان ذلك في الحرب الباردة القائمة بينهما ، او الاصطدام المسلح الذي يحتمل ان يقوم ، مما يعرض البلاد العربية عامة والمراق خاصة الى اخطار جسيمة تجلب لنا الكوارث والدمار ، وتلقي بأبنائها الى التهلكة ، أو قد تودي بكياننا في سبيل مطامع استعمارية لا شأن لنا بها .)

وجاء فيه ايضا :

(ان كل خطة ترمي الى جرنا الى مصكر من المسكريين وبالنتيجة الى زجنا في حرب ما حقة ، او كل تجاوز يقع على حرمة اراضينا ، ويمس استقلالنا باسم الدفاع عنا ، او تحت ستار اخر ، يمد اعتداء سافرا على سيادتنا الوطنية .)

وقد حصل عزيز على نسخة من الجريدة المذكورة ، اعطاها لوالده ليقراها ، فكان تعقيه على ما قرأ :

- انظر . ما هو توقيع كامل الجادرجي يتصدرها .
- انهم لم يفعلوا شيئا غير الانصات الى اصوات الناس وهذا ما يدور في خلد الجميع .
- ولكن مالك انت وهذه البيانات ؟ أليس الأفضل ان تصرف لدروسك ؟ عليك ان تنجح اولاً ، هذه السنة هي الاخيرة لك هنا . وفي العام القادم ستدخل الجامعة في بغداد ، فكيف اطمنن عليك وانت ترمي نفسك في طريق تتيجه السجن والفصل والتشريد ؟

وقال عزيز بثقة :

- ياواليدي ، سيتمون يوما من مطاردة الناس ، كل العراق
ضدهم ، ولست افضل من الاخرين على اية حال •
ثم حمل الجريدة الى هاتف ، ولكنه لم يعلق على البيان بشيء ،
اذ كان منشغلا بهم اخر ، وعندما سأله عزيز :

- ما بك ؟

أجابه :

- افكر في العودة الى السماوة من جديد ، انها مسقط راسي
وكان والدي يحلم بأن يعود اليها ، حتى والدتي اخذت تلح علي ،
تريد ان ترى ابنتها وقرباتها ، تسمع عن فلان تزوج ، وفلانة ماتت
وذاك حصل له كذا وتلك ، وكلما تقدم بها العمر كلما كبر في نفسها
هذا الحنين الذي جعلها اخيرا تنفجر بالنجيب كلما تركت وحيدة في
البيت •

- وما رأي خالي بذلك ؟

- ان نجية زوجتي وأم ابتي ومن حقي ان ابقى في الناصرية او
اعود الى السماوة ، على اية حال لا بد ان اخبره ، واخبر والدك ايضا
بالموضوع •

* * *

ووجد البيان صدها في النفوس ، وكأنه قد حطم جدار الخوف فيها . وبدأت الصحف تكتب عنه وتشيد به وتطالب بحياد العراق ، والبرقيات الكثيرة التي وجهت للحكومة والاحزاب والصحف اكدت على هذا .

واخذت الشخصيات الوطنية واحزاب المعارضة تسمى الى جميع نفسها من اجل تقوية جانبها ، وقدمت طلبا رفض من الجهات المسؤولة ، وعادت لتغير وتحذف من هذا الطلب حتى يصبح مقبولا ، واخذت الجهة الاخرى المؤيدة للنظام والانكليز في التكتل هي الاخرى ، وكون صالح جبر حزبه ، واصدر نوري السعيد بيانا بصفته رئيسا للوزراء يدافع فيه عن موافقه ، ويفخر فيه من اولئك الذين وقموا بيان الحياد ، ويظل البلد يمور بالحركة والفعل .

* * *

أسر حميد الى الشيخ علي بما سمعه عن ياسين وقال :
- اتنا نقول عنه انه مسكين ، ومعتوه ، ولكنه في الحقيقة كلا .
- وكيف ؟
- اخبرني كامل انه يفلق باب دكانه على نساء غريبات ومعظمن من القرويات بائعات اللبن والحطب .
واستغرب الشيخ علي مما سمعه وقال :
- كلنا نعرف انه عنين ، وهذه مسألة مشهورة ، ثم من تقبل دخول دكانه ورائحة البول والنجاسة تفوح منه ؟

- ما تعرفه شيء ، والواقع شيء آخر . وازيدك علما انسي
رأيتك بعيني اللتين سيأكلهما الدود يقرص نهلة من يدها وهو
يسلمها كيس السكر ، فماذا تقول ؟

وهز الشيخ علي رأسه بسخط واستنكار :

- المسألة زادت عن حدها اذن .

- ولو سمع هادي بذلك لقتله .

وصفني الشيخ علي مفكرا فيما سمعه ، ثم قال بعد ذلك :

- اترك هذه المسألة لي ، الزنيم كان السبب في افقار حمد
وجعله يفلق دكانه ، كلنا لا نشترى الا منه ، وهذا جزاء احساننا
أسفا .

- على اية حال لقد نهتكَ .

وكانت كلمات حميد خاتمة الحديث عن ياسين . لكن الشيخ
علي لم يهدأ ، اذ انه أب ، وابنته شابة ، وما اكثر ما يرسلها اليه ،
لشراء حاجة فمن يضمن انه لن يفعل بها مثلما فعل مع نهلة .

وعندما دخل بيته كانت اولى تعليماته .

- لا تشتروا شيئا من ياسين ؟

واستغربت زوجته مما قال فسألته :

- ولماذا ؟

- انه نجس ، يبيكم ويداء ملطختان بالبول ، ونحن اناس
نصوم ونصلي •

• وصفت خيرية على الارض بقرف •

* * *

وحمل هاتف قراره الى والد زوجته • وبدأ الحديث معه ، من
علاقاته السياسية وانهاء بحالة أمه ، فلم يجد حميد لنفسه الحق في
ان يفترض بشيء ، حيث قال :

- المرأة تتبع زوجها حتى ولو الى النار • جئت بحسنة من
« أبو هاون » ، ووالدك رحمه الله جاء بأملك الى هنا ، وهكذا ، لكنني
أود لو تتمهل قليلا وتفكر في الموضوع جيدا حتى لا تأخذ قرارا
تندم عليه •

- ليس هناك من حل اخر • حالة الوالدة سيئة جدا •

- حسنا ، كما تريد •

ثم رفع رأسه ببطء وتطلع حوله بمض الوقت ومرر اصابعه
على شاربيه الكئين • بعد ذلك قال بدعة :

- هناك شيء • أود ان اذكرك به • ان أم عباس بين الموت

والحياة ، ولا يصح ان تركها ابتها وهي على هذا الوضع •

- الحل الوحيد ان تبقى عندكم ، وانا اخذ والدتي واسافر ،
وبعد ان ارتب وضمي واجد لي بيتا وعملا سأتي لاختهما .
ووجد حميد اقتراحه مقبولا . فhez رأسه بالموافقة .

* * *

وبدأت الدعاية ضد ياسين تسري في الزقاق ، والازقة المجاورة ،
واضاف الناس اليها من خيالاتهم اشياء كثيرة حتى وجد نفسه بمد
عدة ايام لا يستطيع بيع شيء .

وجاء بمرية يد ذات يوم وحمل اغراضه فيها ورحل . ولم يحاول
احد من سكان الزقاق ان يبحث عن المكان الذي انتهى اليه حتى ولو
بدافع الفضول ، اذ كانت لهم همومهم الاخرى وصراهم من اجل
ان يرموا في أجوافهم الصائحة لقمة خبز .

٢

جاء عباس راكضا ، ولسانه يتدلى تمبا • وعندما دخل الزقاق
طالعه عزيز وهو يفادر بيته وكتبه تحت ابطه • وعندما رآه استوقفه
متسائلا :

- ما بك ؟

واتحجب عباس باكيا :

- لماذا لا تنطق ؟

- كامل ، كامل •

- ما به ؟

- الشرطة أخذوه •

- واهتز عزيز من الخبر • وامسك بيده محاولا تهدئته حتى يوضح له ماجرى •
- كن هادئا ، ولا تبك هكذا • والدتك مريضة والخبر سيقتضي عليها • ووالدك ليس في البيت الان •
- ثم قاده وهو يقول له :
- هيا ، تمال ممي •
- الى اين ؟
- لنمر بدكان والدي ونخبره بالامر •
- واستجاب لاقتراحه واخذ يمشي معه ، وبعد ان ابتعدا عمن الزقاق صاتين ، التفت اليه عزيز وسأله :
- والان اخبرني كيف اخذوه ؟
- ليس وحده ، جاء مفوض شرطة الى مدير المدرسة واعطاء قائمة بمجموعة من الطلبة ومنهم كامل •
- ولماذا •
- يقولون انهم يهاجمون الملك ويريدون ارجاع الخلافة •
- وضحك عزيز ملء صدره وهو يردد في سره •
- هزلت والله •
- ثم عاد يسأله باستغراب :
- وهل يستطيع كامل هذا ؟
- انهم يراقبون كاملا واصحابه وهم يتجمعون في المسجد ، او وهم يصلون على مشارف بستان زامل وقت الغروب في بعض الايام •

- ألم يجدوا مكانا للصلاة غير بستان زامل ؟
 – لا ادري ، ولكنهم يقولون ان الصلاة في الخلاء اروع لان
 المصلي يقف وجها لوجه امام عطاء الله .

* * *

قال لهما الشيخ علي بعد تفكير :

- اذهبا الى البيت ، وسأذهب الى السراي لآء عرف السبب .
 وابتدره عزيز بالسؤال :
 – الا تريدنا ان نأتي معك ؟
 – لا ، ولكن اغلقا الدكان بدلا عني .

ثم نهض من مكانه ، وارتدى عباة قبل ان يخرج ، وسلك
 الطريق الاقصر حيث دخل الصفاة ، وكان الباعة يجمعون ما تبقى من
 بضاعتهم استعدادا للمفادرة ، وتسربت من المكان رائحة السمك
 والخضروات وروث البهائم ، وبعد ان خرج من الصفاة داخل السوق
 ردد في سره :

- لقد بدأ رشق الرصاص يصل الينا ، هنا ما توقعته .
 وتمتم من جديد بعد ان رد على تحية بائع باقلاء مسلوقة كان
 يقف قرب عربته والبخار يتصاعد من القدر الكبير الذي يتوسطها :
 – اليوم كامل وغدا عزيز أو عباس !

وعندما وصل الى السراي وجد عددا من الابهاء متجمين هناك ،
والوجوم الحائر يسيطر على وجوههم • وحياتهم بأعلى صوته ، فجاءه
الجواب من بعض الافواه خائفا ومخدولا •

وقال احد الواقفين باحتجاج :

- اطفال صفار ما زالوا يبولون في افرشتهم ، ماذا تريدون ان
تفعلوا بهم ؟

واجاب اخر كان جالسا على الارض بعد ان تمب من طول
الوقوف :

- وهل يمنعون الناس من الصلاة ؟ اطفال وهداهم الله الى
طريق الحق فما الذي عملوه لكم ؟
ونطق الشيخ علي بحكمة :

- اذكروا الله قليلا ، ودعونا نبحث عن الحل •

* * *

نادى معاون الأمن على مأمور المركز وسأله :

- هل قبضتم عليهم كلهم ؟

- نعم سيدي

- ورئيسهم ؟

- القينا عليه القبض منذ الصباح •

ونهض المعاون وهو يقول :

- حسناء ، أين هم ؟

- في الفرقة •

وخرج المعاون متجها الى غرفة كبيرة ملحقة بقسم الامن ، كانت تستعمل كمعتقل وقتي ، وعندما دلف اليها طالعه مجموعة من الصبيان المذعورين الذين لم يسمعا يوما بالسجن والاضطهاد ، وأصاب المعاون الوجوم عندما رآهم ، اذ لم يخطر بباله ان يجد امامه هؤلاء التلاميذ الصغار ، وقد ظن من خلال التقارير التي رفعت عنهم انه سيجد امامه رجالا كبار السن •

بهق على الارض بغضب وصرخ في وجه مأمور المركز :

- تعال ورائي •

وعندما جلس على كرسيه من جديد قال بحدة مخاطبا مأمور

المركز :

- ان مخبريك اغييا • افهمت ؟ أهؤلاء الذين يخيفونكم ؟

لقد جعلتم الذعر يحل في المدينة ، انها فضيحة ، انظر •

ونهض من مكانه وفتح الشباك • واثار بيده الى فوج الاباء

المتجمعين :

- انظر ، ماذا فعلتم ؟

- ولكنهم سيكبرون غدا ياسيدي وسينتشرون مثل الوباء ؟

- انهم مراقبون فقط ، افهمت ؟

وردد مأمور المركز بهدوء محاولا ان يعرف الوسيلة التي
يتصرف بها أمام هذا الاشكال :

- وماذا تفعل الان؟

- قل لهم أن يتركوا التجمع ، وليصلي من يشاء في بيته ، وان
عادوا العمل سوف نسجنهم ولن نجعلهم يعودون الى بيوتهم •

- ورئيسهم؟

- هل هو طالب مثلهم؟

- لا ، انه مدرس رياضة •

- اكتب على ابعاده الى اربيل او السليمانية •

وخرج مأمور المركز ليفتح الباب لهم ، فهرعوا راكضين الى
ذويهم • وقبل الشيخ علي كاملا على خده ثم قاده مبتعدا •

- بسيطة يا ولدي •

ولكن كاملا تساهل برجولة :

- أتدري يا عمي بماذا أجاب الحسين عليه السلام عندما حذره
الحر من القتال؟

وفرح الشيخ علي من هذا التساؤل الواثق وقال مستوحشا :

- ماذا قال؟

- سأمضي وما بالموت عار على الفتى

اذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما

وربت الشيخ علي على كتفه وهو يردد بحبور :

- بارك الله فيك يا ولدي •

ثم استدرك قائلا :

- ولكنك لم تزل صغيرا على مثل هذه الامور ؟

- انني افهم كل شيء .

وكبرت الفرحة في صدر الشيخ علي وتمتم في سره :

- ان اولادنا يكبرون !

* * *

قام حميد بنحر ديك كبير . بينما تعالت الزغاريد في الزقاق
احتفاء بعودة كامل .

لقد انتظروه الاولاد في رأس الزقاق ، أما النساء فقد جلسن في
ابواب بيوتهن ، والقلق مرتسم على وجوههن . وقد بدأن يتقبن في
ماضي اقرارهن ، ومن سجن منهم ، او ضربه رجال الشرطة ، واخذ
كل حديث يجز الى اخر .

ثم بدأت وفود الزقاق تدخل بيت حميد وتنتظر بأعجاب لهذا
الفتى الذي خلفته الحكومة فسجته .

وامتدت الجلسة الى ساعة متأخرة مسن الليل ، وكان حميد
يسأل ابنه بين فترة واخرى :

- اخبرني يا كامل ، هل ضربوكم ؟

ويقسم كامل :

- والله ياوالدي لم يضربنا احد ، صدقني •

ويسأله جبار :

- ولماذا اعتقلوكم ؟

ويبهز كفيه حيرة :

- لا أدري •

ويعود والده ليسأله :

- ماذا فعلوا بكم اذن ؟

ويشرح لهم كامل :

- وضعونا في غرفة التوقيف ، كنا اكر من ثلاثين تلميذا ،

وبقينا هناك ، وقد هددونا بأنهم سيجلدوننا بالصفي ويحرمونا من

الماء والطعام ان عدنا الى التجمع •

واحاطت به الاذان الصاغية تستزيده فتابع :

- ثم جاء مأمور المركز وامر الشرطة بأطلاق سراحنا •

وتساءل احد الجالسين :

- اهذا كل شيء ؟

ورد عليه الشيخ علي باستغراب :

- اتريدهم ان يقطعوا اعناقهم اذن ؟

اخذت الزقاق فورة جديدة • ووجد البشر طريقه للوجوه
 المكدودة • ولم يمك بعض النسوة انفسهن من الزغردة والدعاء
 للمتصرف ورئيس البلدية بطول العمر •

كل هذا حدث لان اعمدة الكهرياء بدأت تتصب الواحد بعد
 الاخر وعلى امتداد الزقاق الذي اكلته القمّة طويلا •

قالت امرأة :

- الضياء بركة •

واضافت بائمة حلويات وهي تنظر الى قفتها المطروحة أمامها :

- سأستطيع التأخر اكثر وربما يزداد بيومي •

• علق رجل كان يتأمل العمال :

- كما مثل الدجاج ، تنام مع الظلام •

وضحك رجل آخر كان يقف جواره وقال :

- لكنك ديك ولا تضيع وقتك سدى ؟

وهز رأسه اتشاء واجاب :

- كبرنا وحقك ، لم تعد لنا قوة أيام زمان •

* * *

مع النور بدأت حياة اخرى ، كان الظلام يغطيها ، ولا يدع للزقاق من فرسان غير القبط الباحثة أمام ابواب البيوت عن لقمة خبز سقطت من يد أحد الاطفال ، او قطعة من جلود السمك ورؤوسها واحيانا بعض الكلاب السائبة التي تستغل خلو الزقاق وعمته الدامسة فتدلف فيه منقبة عن شيء ترميه في اجوافها اذ ان سكان الزقاق قد اخفقوا على ان لا يربوا الكلاب بمد حادثة عض فيها كلب أحدهم طفلة كانت تلعب أمام باب بيتها ، وقبلها حادثة « طرزان » كلبة حميد ، هذه الحادثة التي ما زالوا يتذكرونها ، كما يتذكرون كيف قتلها حميد بالفاس ليكفي سكان الزقاق شر دائها •

وكانت النساء اول المنتفعات من مصابيح الشارع حيث بدأن يتأخرن في جلساتهن المسائية ، وتأخذهن الثرثرة حتى ينسبن أنفسهن ، ولا يحضرن عشاء أزواجهن مبكرات •

كما نقل الرجال مجالسهم الى الشارع بعض الاحيان ، حيث تبدأ بوقفة باب احد البيوت وتنتهي بتجمع يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل • تتخلله السيكاثر واقداح الشاي وفناجين القهوة •

وعندما يخرج النساء لينادين على ازواجهن ، وينبهنهم على تأخر الوقت ووجوب ان يستيقظوا مبكرين للحاق بأعمالهم ، كان هذا يثير التعليقات الغامزة فيما بينهم •

لكن فرحة الاطفال كانت اكبر من الجميع ، حيث بدأوا يتذكرون العابهم التي لا يلعبونها الا في الليالي القمرية ، منها لعبة « الخيلة » وفيها ينقسمون الى مجموعتين احداهما تخفي والاخرى تبحث عنها ، وتبدأ عملية البحث بعد ان ينادي احد المخفين بصوت عال : « حلال » • أما البنات فقد يساهمن في هذه الالعاب بدور المتفرجات ، وتعالى قهقهاتهن كلما تم القبض على احد المخفين او اهتدى الى مكانه •

لعبة اخرى كانوا يمارسونها هي لعبة « الطيط » وكان عباس يجد فيها متعة كبيرة ، وينقسم لاعبوها الى مجموعتين يفضل بينهما خط ويدخل احد افراد المجموعتين بالتناوب الى جهة المجموعة المقابلة منادياً بنفس واحد : « طيط » ، ماذا اليا ، واذا انقطع نفسه في تلك الاثناء يسقط ويخرج مغلوباً ، أما اذا استطاع ان يمس اي فرد من افراد المجموعة المقابلة فإنه يسقطه ، ولذا يحاولون الامساك به ورميه على الارض ويدعونه يردد : « طيط » ، هذه حتى ينقطع نفسه •

وكانت متعة عباس في خفته وطول نفسه عندما يصول ، وقد يسقط اثنين او ثلاثة في كل هجمة قبل ان يعود الى جهته . وكانت نهلة تندس بين النبات لتراقبه فرحة ، وكلما احس بمراقبتها له ازداد حماسه للعب .

وكانت للنبات العابهن ايضا منها لمبة « الطاق » ، وهي القفز على رجل واحدة مع دفع غطاء علبة صغيرة او قطعة حجر ضمن مساحة مقسمة الى مربعات على الارض .

وقد بثت هذه الالمان في الزقاق حياة جديدة ، ووجد عباس فرصة في اسماع نهلة بعض الكلمات ، كما اتفقا على ان يلتقيا في حديقة « غازي » ذات يوم ، وعندما حضرت همس لها وهو يرتجف مذعورا ، وعيناه لا تستقران على وجهها :

- لم ارك منذ مدة طويلة ؟

فتساءل باستغراب :

- لماذا كل هذا الخوف ؟

- والذي .

- قل له انا التقينا صدفة ؟

- وهل يصدق بسهولة ؟

- لم نفعل شيئا يفضبه ؟

- ان مجرد حديثي معك يقول عنه قلة شرف واعتداء على

اعراض الناس .

وتتبه لما يقوله ، فيمسك بها ذعر طفيف ، ويقول بتلثم :

- لكن والدي لم يحذرنى منك ولا من كامل ؟ انظر .

واشارت بيدها الى بناء المدرسة الثانوية الكبيرة وهي تنصب على

امتداد الشارع المحاذي للحديقة ، وازافت :

- انه هناك الان ، وقد يراانا .

وحاول عباس ان يثبت رجولته امامها فقال طاردا تخاذله :

- نحن جيران ، وسنقول له انني اهدتلك من تحرشات احد

الشبان .

فضحكت نهلة مما قاله ، واعلنت مداعبة :

- طردت الشاب الذي تحرش بي ؟ لكن لم جئت بسى الى

الحديقة اذن ؟

ويبتسم لها ويردد :

- ساعدني الله على لسانك ، أود ان اقطعه حتى آمن شره .

- ماذا تنتظر منكم أيها الرجال ؟

ثم جلسا على احد مقاعد الحديقة ، وتحدثا عن دروسهما .

وعندما مر من امامهما فلاح عجوز كان معروفا بمطاردة الصبيان الذين

يدخلون الحديقة حتى لا يقطعوا الأزهار ويهربوا . استخرج كل

منهما دفتره وتظاهرا بالقراءة . وبعد ان ابعد تعود الى القول :

- اسمع يا عباس ، ان امي وابي يقولان ان لديهما نقودا كثيرة .
راتب والدي قليل ، لكن أمي تبيع كثيرا في الخياطة ، وقد اشترت
ماكنة خياطة جديدة .

وهنا ازدادت لهجتها فرحا وكأنها تذكرت شيئا هاما :

- الماكنة القديمة اصبحت لي ، ووعدتني بأن تعلمني الخياطة
ايضا .

- والمدرسة ؟

وهزت كتفها بلا مبالاة وهي ترد :

- ضجرت منها .

وعادت لتضيف :

- كرت اعمال امي في الخياطة ، والناس يريدون ثيابهم
بسرعة ، لذا اصبح طبخ الطعام وغسل الاواني وتنظيف البيت من
شؤوني ، حتى انني عندما ادخل الصف اكون متعبة وغير مذاكرة
لدروسي . وقبل ايام غفوت فيه فأصبحت موضوعا لتندر الطالبات .

وفوجيء عباس بلا مبالاتها وردد مؤكدا وناصحا :

- يجب ان تبقي في المدرسة حتى تتخرجي معلمة او ممرضة في
أسوأ الاحوال ثم تتزوج بعد ذلك .

وضحكت نهلة بالسم عندما سمعته ينطق جملته الاخيرة
وارتسمت سيماء بائسة على ملامح وجهها الصغير ذي العينين الاسرتين
والانف الاقنى المتسامي ، ونطقت بعد تردد :

- ابن عمي يريدني • وعندما يتزوجني سيمدني الى الهور
حتما •

وذهل عباس مما سمعه وتساءل غير مصدق :

- ابن عمك ؟

وهزت رأسها مؤكدة :

- نعم • ألم تره ؟ انه الجندي الذي يزورنا دائما ، وبعد
شهرين سيسرح من الجيش •

وكبر الغضب في صدر عباس وهو يصرخ :

- كيف يأخذك ؟

وردت ببساطة واستسلام :

- يأخذني رغما عني ، وان اعترضت قتلني •

وكان ما سمعه عباس كالصفعة التي وأدت رفيف الحلم الجميل
في اعماقه •

وزفر بحرقة وهو يردد :

– لا ادري ماذا افعل يارب السماء والارض ؟

واخذ يضرب بقبضته على المقعد الخشبي وهو يركز على اسنانه
وقد احتقنت عروق جبهته •

فقال محاولة تهدئة :

– القسمة والنصيب يا عباس ، لكن من يدري ماذا سيحدث ؟
والدي نفسه مل البقاء هنا رغم ربح والدتي ، يريد الانتقال الى
مكان اخر او ترك العمل في المدرسة •

وعندما وجدته يصفي لما تقوله واصلت البوح عن اسرار عائلتها
الصغيرة بسهولة وطية :

– جاء قبل ايام وهو يئن من الالم • وانطرح على الارض
دون حراك ، وعندما سأله امي عن السب اخبرها بأن مجموعة من
الطلبة امسكوا به في الظلام وكموا فمه ثم ادخلوه في ساحة المدرسة
المظلمة وضربوه حتى فقد وعيه ، ولم يفق الا بعد فترة •

واستغرب عباس ان يحدث هذا دون ان يعرف به احد من
سكان الزقاق • وتساءل :

– ولكن لماذا فعلوا هذا ؟

– يقولون انه ينقل اخبار الطلبة الى المدير والى شرطة الامن •

وهنا توقفت دهشة عباس اذ قفزت امام عينيه فجأة صورة اخيه
يوم قاده رجل الشرطة مع اقاربه الى المعتقل والرعب الذي اجتاحه
يومذاك •

أطرق قليلا ثم سألها :

- وهل هو حقا كذلك ؟

واطرقت هي الاخرى ثم رددت :

- ومن ادراني أنا ؟

٤

جاء موت حسنة وكأنه أمر متوقع، وكانوا يتهاونون له منذ شهر •
وقد قالت غالية :

— كلما سمعت صيحة قلت سلمت حسنة روحها لله •

كان ذلك في صبيحة يوم جمعة • ورافق الجنازة الى النجف
كل من زكية وخيرية وغالية ، وبقيت نجية لتشرف على ما تبقى من
الاولاد •

وتتابع المزون على حميد وكلهم اجتمعوا على القول :

— طال عنايبها رحمها الله •

– لقد ارتاحت وارتاحتم •

– البركة في عباس وكامل •

لكن حميدا لم يظهر حزنه العميق • وحاول التماسك
أمام أولاده ليخفف من ألم المصاب في اعماقهم •

وازداد كامل وجوما على وجومه الاول ، وشحب وجهه
وافترشته صفرة مؤلمة ، ولم يعد راغبا في النطق او اللهو ، لقد حدث
له هذا منذ اعتقاله ، ثم جاء موت أمه ليمتق هذا الوجوم ويحيله الى
قاموس لحياته •

* * *

وتم الاتفاق على ان تتحول زكية من بيت الشيخ علي وتسكن في
بيت حميد :

– لتكوني لباس وكامل ظللا بأويان اليه •

هكذا اخبرها الشيخ علي واطاف :

– وعمتهما أم عزيز قريبة منك اذا احتجت لشيء •

ورددت زكية بقبول :

– سأرعاها بعيني وفاء لذكرى حسنة •

وتتحب بعد ان تلفظت الاسم بمحبة وخشوع •

وقال حميد :

– وانا مثل ابنك ، والبيت بيتك •

أما خيرية فقالت :

- نجية يجب ان تسافر لزوجها وبيتها •

ولفت البيت الأمن غلالة الحزن ، وما عاد الفرح يرقص على
وجوه افراده المتألمين رغم مشاحناتهم الصغيرة •

وحاول حميد جاهدا ان يزيد من اهتمامه بولديه حتى يردم
الهوة في حياتهما التي خلفها رحيل امهما المبكر ، ولكن عبثا فاليتم
والانكسار يسكران في وجهيهما • وعندما يرى ذلك لا يستطيع كبح
دموعه فتفجر ساخنة مرة •

وقد دفعته وحدته الى المزيد من التمدد وزيارة الاضرحة القريبة
من المدينة كلما وجد متسما لذلك • وفي بعض الاحيان كان يطلب من
كامل ان يرتل القرآن فيستجيب كامل لطلبه ويظل يرتل حتى يبح
صوته •

يقبله حميد بعد ذلك ويوقفه :

- لقد تعبت يا ولدي ، بارك الله فيك •

أما عباس فقد اخذه الوجوم الحزين ، ولم يعد متحمسا لاشيائه
اليومية ، وبدأ ينفق الساعات الطوال في القراءة او الرسم احيانا دون
ان يخرج من باب الدار •

ولكنه قبل دعوة احد اصدقائه ذات يوم وخرج معه لاصطياد
البلابل من بستان « حنو » المجاور لحديقة غازي ، وسرعان ما تعلم
باتقان طريقتي الصيد • الاولى بواسطة قفص ، والاخرى بواسطة فنج
خاص •

وعندما تكرر خروجه للصيد لم يعترض والده ، وقد نبهته
زكية لذلك :

- أخاف ان يترك دروسه ؟

ويحبها :

- لا استطيع ان امنه ، المهم ان يخرج ولا يبقى مطاطا رأسه
هنا .

وعندما علق قفص البلبل في جذع النخلة ، وانصت حميد الي
تفريده منذ الصباح الباكر هتف :

- ان تفريده بركة ، ويفتح القلب .

كما بدأ عباس يبيع ما يصطاده من البلابل . فوجدت زكية
نفسها مضطرة لان تقول له بحرص :

- اياك والابتعاد عن دروسك .

- ان درجاتي عالية يا جدتي ، واذا لم تصدقي اسألني عزيزا
او كاملا .

ويضيف وهو يهز رأسه مؤكدا :

- انني اعرف ما أفعل

لكنه سرعان مامل هوايته هذه ، وكف عنها ليواصل حضور
مباريات الكرة بنفس الحماس ، وقد اختير كامل ضمن فريق مدرسته
في كرة السلة وقال له مدرب الفريق :

- ان مستقبلك باهر في هذه اللعبة ، فأنت نحيف وطويل
واضافة الى هذا قدرتك على التحرك بخفة والتهديف بدقة وبرودة
اعصاب .

وقد أنصت كامل جيدا لهذه الملاحظة ، وارتمى في عالم هذه
اللعبة التي خففت كثيرا من اندفاعه الديني ، كما ابعده عن الجسو
الحزين الذي يخيم على بيته .

وفرشت زكية عليهما ظلا من الرعاية والدفء الامومي ، وعندما
يتأخر احد الولدين تخرج الى رأس الزقاق وتظل جالسة هناك تسأل
لراجمين من اقارانه . وكانت تردد :

- اذا لم اسأل عن اليتيم فمن يسأل عنه ؟

وتواصل وهي تضرب يدا بيد :

- رحمتك الله يا حسنة ستعطيني ان اهملتهما يوم القيامة عندما

نلتقي في الجنة اذا اراد الله .

* * *

نوى حميد على السفر الى النجف ، وقد قال للشيخ علي :

- لم أذهب للزيارة منذ سنوات ، أريد ان امسك بشباك الامام

علي وابكبي ، الامي كثيرة يا أبا عزيز . ولعل الدموع تزيح ثقلها .

- وعباس وكامل الا تأخذهما ممك ؟

- لا . ان قبر امهما هناك ، ولا أريد ان اذكرهما بعد ان اخذا

يتسيان تدريجيا .

ووافقه خيرية على قوله :

- كلامك صحيح .

- ثم انني لا اريدهما ان يعتمدا عن المدرسة يوما واحدا •
وقال عزيز الذي كان يشرب شايه وهو يصغي الى حديثهم :
- هل تدرون ان كاملا اصبح من احسن لاعبي كرة السلة في
الناصرية ؟

ويرفع حميد عينه مستفسرا :

- صحيح ؟

- لو رأيتك يلعب لامتلأ فخرًا ، لا ادري من اين جاء بهذه
المهارة ؟ قبل ايام حضرت اللعب بين فريق مدرستا وثانوية سوق
الشيوخ ، فوجدت الحاضرين يهتفون جميعهم باسمه وهو يسجل
الهدف بعد الاخر •

ثم اضاف مختما ما باح به :

- وقد سمعت انه سيرشح في منتخب المدينة •

ويسأله حميد :

- وما الفائدة ؟

- سيزور كل مدن العراق ، وسيقدمون له هدايا في كل مباريات
يفوز بها ، بدلات ، ساعات يدوية ، قمصاناً •

- ودروسه ؟

- اللاعبون ينجحون رغم أنف الجميع • ثم ألم تسمع ياخالي
بالمثل الذي يقول العقل السليم في الجسم السليم •

- سمعت به ، ولكنه لا ينطبق على كامل ، فقله سليم هذه
مسألة لا يشك فيها أحد ، ولكن جسمه غير ذلك ، لا أدري أين
يذهب طعامه ؟ ومن يراه يتصور انه لا يأكل ولا يشرب •

ويرت الشيخ علي كفه مت دخلا في الحديث :

- سيكبر ويتوظف وبعد ذلك يسن ، ويصبح له كرش مثل
الموظفين • أعوذ بالله كل واحد كرشه يتدلى مثل كرش امرأة في
شهرها التاسع •

فينفجر الجالسون ضحكا • ثم يقول عزيز :

- على اية حال الرياضة احسن له من مشاكل الخلافة ،
وملاحقة الشرطة ، آه ياخالي حميد ما أزال اتذكر ذلك اليوم •

كبر الحقد في قلب عزيز منذ ان ماتت ، الشهيدة ، ، هكذا كان
يسمى حسنة زوجة خاله ، فهي شهيدة منذ ولادتها . صبية ضامرة
تحمل اكياس القمح وتطحنها وتخبزها ، كما ترعى الاغنام ، وتحلب
الابقار ، وتزرع وتحصد ، وتتولى الحراسة في الليالي المظلمة ، ولما
تزوجها حميد واخذها معه الى المدينة ، حملت معها صدرها المنخور ،
وبدلا من ان تورق وترتوي في افياء المدينة وامانها بدأت تذوي يوما
بعد اخر ، وكانت الحقن والادوية توقف زحف الداء لايام ثم يعود
ويهجم عليها من جديد واجدا الارض اهلا لاستقباله حيث الارهاق
وسوء التغذية والقلق الكبير .

ذهبت « الشهيدة » وهي لم تتجاوز الثلاثين الا بسنوات قليلة
وكانت تحلم بأن يتخرج ولداها ويتوظفا وتعيش في بيت من
الطابوق ، تأمر وتتهي كما تريد ، وزوجتا ولديها تطيعان ، لكنهما
راحت !

ويعض عزيز على يده ألما ، لا مستشفيات ، لا علاج ، لا شيء
على الاطلاق ، ونفس المصير ينتظر أمه ووالده وخاله ، وربما ينتظره
هو ايضا ، لولا قراعه واصراره على الدراسة ، وهاهو على وشك ان
يقفز الى بغداد لينضم الى جامعتها ويبدأ رحلته الكبرى عله يحقق
أحلامه في ان يفعل شيئا من اجل وطنه وامته ، ومن اجل الشعر الذي
بدأ يخط سطره الاولي في دفاتره .

* * *

ماجدة راحت كذلك ، واخذتها الدنيا ، ضاعت كما تضيع اشياء
جسيمة تولد في غير أوانها ، حتى لو طلبت منه ان يتزوجها ، فهل
يستطيع ؟ انه ما زال في اول الطريق احلامه متعددة ، النساء جزء
منها ، ولكن عيني ماجدة لا تنطفأ في ذاكرته ، انهما تعيشان معه ،
وقبل ايام عندما التقى بها وجها لوجه اهتز كيانه ، وتضرت خطواته ،
كانت بصحبة زوجها هيفاء نضرة ، تنفوس في قلب السوق راية راتمة
يورق منها وجه اسر ، له عينان ناعستان تديبان كل عذابات الدنيا ،
وكان زوجها يدب بجانبها بطينا وقصيرا ، فرحا بها ومفتاظا من العيون
التي تلتهمها اشتها وورغبة .

اسرع الى المقهى ، وظل صافنا هناك فترة طويلة ، سرح مسح ذلك الحلم المجهض . وتذكر وقائمه منذ ان راها ، ولا حقها حتى اهتدى الى بيتها ومدرستها . لم تصده عندما احست به ، بل كانت بسمتها تزداد نضاعة وروعة كلما التقته . ثم كتب لها رسالة . كانت أول رسالة يكتبها لامرأة . مزق عدة مسودات واستبدل كلمات بأخرى حتى استقر على الصيغة الاخيرة منها ، ثم سلمها بيدها . كانت تمشي في الشارع فمشى بمحاذاتها ، ثم همس لها بتحية الصباح ، فأجابته بحياء وارتياب ، فوضع الرسالة بيدها ومضى .

* * *

لم يبق له الا أيام قليلة ، انه ينتظرها بصبر حتى يرحل . فبغداد جلم يكبر في خياله ، لم يرها من قبل ، ولم ير أية مدينة اخرى ماعدا البصرة التي تصدها في رحلة مدرسية ، وحمل منها ذكريات جميلة ، ففيها شرب أول كأس بيرة ، وعرف جسد أول امرأة فانفتحت عيناه على افاق جديدة .

سأله صاحبه :

- لماذا لا تقرأ ؟

وردد بقرف :

- انني متعب .

واطبق صاحبه كتابه مسرعا وهو يملن :

- حسنا ، دعنا تمش على شاطئ النهر

- لا رغبة لي •

ويواصل الصديق بنفس حماسه :

- قم يا أخي ، قم •

- اتركني أرجوك •

- سأذهب وحدي اذن •

ثم نهض مفادرا ، فتح عزيز مجلة كان يحملها مع كبه المدرسية ، وتصفحها بتؤدة ، وبدأ بقراءة القصائد على عادته كلما حصل على مجلة ادبية جديدة ، ولم يتوقف عند احداها ، لكنه توقف عند مقالة عن الغزل في الشعر العربي ، فهياً نفسه لقراءتها بأشغال سكاراة •

وقرأ استشهادات من ابن الرومي :

(وما كان مقدار الذي بي من جوى ليشفيه ما ترشف السفستان

كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى ان يرى الروحين تمتزجان)

وطرب لوقع الايات ، واطر عليها بالقلم • حتى ينقلها بعد ذلك في دفتره الخاص .

وأخذ يعيد القراءة ، وفي كل مرة يكشف في الايات سحرا جديدا ، واحس ان الشاعر ما زالت حية رغم السنين والتجارب فكأن ابن الرومي عاش بيننا •

ولم يستمر في قراءة المقالة الا بعد ان تأكد من حفظه للايات عن ظهر قلب •

وواصل قراءة تحليل كاتب المقال لظروف القصيدة ، وثورتها ،
وقدرتها على استيعاب مشاعر العربي في العشق والهيام ، بعد ذلك توقف
عند استشهاد آخر بأبيات لجميل بشينه العاشق الخالد .

وقبل ان يبدأ قراءتها انتبه الى صديقه الذي حط على مقعده ثانية
فسأله :

– لماذا عدت ؟

رمى الصديق كتبه على المقعد جواره ثم زفر بقوة ، بعد ذلك
أشار للنادل بيده وعندما حضر طلب منه شايًا ، ثم رد على تساؤل عزيز :
– شعرت بالقرف فجأة ، لم ار على الشاطئ ، وجه امرأة واحدة
ما عدا عجوزاً تستجدي .

– هذا المقهى اصبح محوراً لنا ، انا ندور ثم نعود اليه .

وعلق الصديق بهكم :

– حتى نريح المخبرين ونريح انفسنا، استطيع ان أدلك على خمسة
منهم في هذا المقهى فقط .

– وهل تخافهم ؟

– ابدأ . ولكنني اقرف منهم فقط ، شيء لعين ان تحس بانك
مراقب ، وان كل تصرف تتصرفه مرصود .

وردد عزيز بلا مبالاة :

– اظنهم ضجرين من مراقبتنا ، ولكن هذا عملهم ، ولا بد ان
يكتبوا شيئاً في تقاريرهم عندما يعودون الى اسياهم في المساء .

- يكتبون ؟ أقسم بمحمد ان ثلاثة ارباعهم لا يعرفون كتابة
اسمائهم •

وضحك عزيز وبعد ان ارتوى من الضحك قال :

- خفض صوتك قليلا والا امضينا هذه الليلة الساخنة في
ضيافتهم •

ثم اتبه الصديق الى المجلة بعد ان انتهى من شرب شايه وعلق:
- مجلاتك هذه هي اصل البلاء ، وهي كالذب الذي يجذب
الذباب • هياقل لي ماذا فيها ؟

- وحقت يا عبد الله ان فيها الشيء الكثير • المقال الذي اقرأ فيه
دراسة عن الغزل في الشعر العربي ، وهو احد اغراض هذا
الشعر ، اسمع دعني أقرأ لك ما يقوله جميل في حبيته بثينة ، واذا
سهل الله أمرك واوقعتك في الحب ذات يوم فأمكانك ان تضمن هذه
الآيات احدى رسائلك الغرامية •

- الله يسمع من فمك ويجعل احدا من تفقد عقلها وتحب صلوكا
تتلي ، هياقرأ •

واخذ عزيز يردد بهدوء محاولا ان يجعل الكلمات تنطلق من
قلبه لا من شفتيه :

- (ارى كل معشوقين غيري وغيرها

يلتان في الدنيا ويقتبطان

وامشي وتمشي في البلاد كأننا

أسيران للاعداء مرتنهان

أصلي فأبكي في الصلاة لذكرها

لي الويل مما يكتب الملكان

ضمنت لها الا أهم بغيرها

وقد وثقت مني بغير ضمان

وتمتم عبدالله وهو يشير بيده ليستوقفه :

- كفى كفى ، انها لرجل لاعمل له بلاشك ، والا ما هذا الهراء؟

يكتب الملكان بغير ضمان ؟

- اتكلم بجد ؟

- وماذا تصور اذن ؟

واطبق عزيز المجلة وهو يردد :

- ايها النبي •

ويضحك مما قاله ثم يرد ببساطة :

- الغباء نعمة قياسا الى الجنون الذي عشت في رأسك ورؤوس

امثالك •

القسم السادس

الأمل - الوعيد

شملت المدينة موجة من الفرح بهتت أمامها كل المصائب
والاحزان القديمة عندما انتفض قلب القاهرة العربي واسقط النظام
الملكي هناك وبدأ المواطنون بأظهار فرحهم متحدين السلطة واجهزتها
ومخبريها وقاموا بتوزيع الحلوى والمبردات •

واخذ الناس يهرعون الى اجهزة الراديو مترصدين مواعيد
نشرات الاخبار لسماع المزيد من اخبار الحدث المهم ، أما الصحف
العراقية فقد اجبرت على ان لا تطلق بشيء عليه ، واكفت بنقل الاخبار
كما هي •

وأصحت الناس جيدا للبيان الذي اعلنه الثوار ومما قالوا فيه :

(اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الاخير من الرشوة والفساد ، وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش ، وتسبب المرتشون المفرضون في هزيمتنا في حروب فلسطين ، واما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش ، وتولى أمره أما جاهل ، او خائن ، أو فاسد . . الخ)

وتحمس الشبان في الحديث عن الثورة التي جاءت من مصر ، وصرخ البعض منهم بتفاؤل :

– هذه البداية والايام جليى •

واتسعت عيون المخبرين ، وطاش صواب الالسياد وهم يراقبون ما يجري ، وقاموا بجمع عدد كبير من الوجوه السياسية المعروفة في المدينة بحجة توزيع منشورات تهاجم الملك والوصي • وكان من بين الذين اعتقلوهم محسن الحلاق •

وقد قال الشيخ علي عندما سمع بالخبر :

– ماذا يريدون من الرجل ! انه عجوز ومريض ، حتى بصره ضعف ، ألم يشفوا غليلهم منه بعد ؟

ويطلق حميد :

– عين الله لا تنام •

- الدنيا لا تدوم لأحد ، ألم يرتدعوا من مصير الملك فاروق ؟
ويحاول حميد تهديته :

- أبا عزيز لا تجعل اولادنا يسمعون مثل هذا الحديث ، أرجوك .
ويخفض الشيخ علي صوته وهو يقول بحرقة :

- تعرف انه صديقي ، وان ما يحدث له يؤلني .

- ولكنه شجاع وغير مهتم ، أنا رأيته بعيني البارحة عندما ذهبت
الى السراي لأستلم بندقيتي ، كان معه كثيرون يحجزونهم في ذلك
الغن الخانق الذي لا تمناء حتى لعدوك .

* * *

ويذب الحماس في صفوف الاحزاب . وتجد الوقت مناسباً لطرق
الحديد وهو ساخن ، فبدأ بطرح مطالبها ، فيقدم حزب الاستقلال
مذكرة الى الوصي يعبر فيها عما يجيش في صدور الناس من رغبة
لتطهير جهاز الدولة ، واطلاق للحريات الدستورية ، والقضاء على
معاهدة ١٩٣٠ التي قيدت استقلال البلد وسيادته الوطنية .

كما قامت الجبهة الشعبية بتقديم مذكرة ايضا وبعد ان شرحت
فيها الوضع السياسي في البلد اكدت ان (الشعب لا يعنيه قط تبديل
اشخاص باشخاص ، وانما يعنيه تبديل جوهرى ، يستأصل الفساد في
الوضع القائم من اساسه لأن احتمال الشعب مهما طال لا بد منته الى
حد)

وأكد الحزب الوطني الديمقراطي في مذكرة ثالثة على ضرورة
الغاء الاقطاع منبهة الى ان الشعب قد ضاق ذرعا بحالته الاقتصادية

المرتدية ، كما اكد ~~الشيخ~~ ان الشعب العراقي لا يرغب ببقاء أية قوة اجنبية في أرضه ، ويريد التحرر من معاهدة ١٩٣٠ واسقاطها نهائيا .
واصبحت هذه المذكرات مضافا اليها المنشورات السرية الاخرى حديث الناس ، وقد حملت البعض منها صحف المعارضة : الاهالي ، الجبهة الشعبية ، ولواء الاستقلال ، وتوزعت على كل القطاعات ، بين الموظفين والعمال والباعة وطلبة المدارس . كما امتلأت الجدران بالكتابات ، واعتقل عشرات الطلبة .

ونطق الشيخ علي :

- حدث الهرج في الناصرية من هذه المذكرات فكيف الوضع في بغداد الان ؟

واجابه جبار :

- الله يعلم

بعد ذلك باح الشيخ علي بما يعتمل في صدره وقال :

- في نيتي ان أزور الكاظميين ، طال ابتعادي عن تنفس عطر مرقديهما المقدسين ، بدأنا لا نقوى على الحركة ، مرة ذهبت الى كربلاء مشيا على قدمي ، كنا نحمل امتعتنا في اكياس على ظهورنا ونمضي ، لن نخاف الذئاب ولا اللصوص ، أما اليوم فلدينا السيارات والقطارات ومن يدري ربما تأتينا غدا الطائرات ، ولكن لا قدرة لنا على الحركة .

وقال حميد :

- أنا ذهبت ثلاث مرات مشيا على قدمي ، وكانت متعة لا توصف واعلن جبار :

- أما أنا فمرة واحدة ولكنني لم استطع الوصول فاضطررت الى الذهاب للسماوة ومن هناك ركبت سيارة •
وعاد الشيخ علي للقول :

- ان تذهب للزيارة راجلا يعني هذا ان الثواب سيكون نوابين •
وقال جبار :

- الله سبحانه وتعالى يغفر لنا • الكبر مملون •
ومن جديد قال الشيخ علي :

- أفكر بتأجيل هذه الزيارة حتى ارافق عزيزا عندما يكمل
اوراقه ويحملها الى الجامعة في بغداد •
ويسأله حميد :

- وما الذي اخرها ؟

- لا شيء ، لكنهم لا يعطون شهادة حسن السلوك هذه الاينام
بسهولة ، قال لي المفوض من يدري ان ابنك لا يشتغل بالسياسة مثل
أصحابه ؟ وعرفت انه يريد شيئا والا عرقل الموضوع ، فقلت امري
لله ، ووضعت خمسة دنانير بيده • وحلت العقدة واصبح عزيز حسن
السلوك •

وضحكوا جميعهم مما سموه وقال جبار :

- الفلوس مفتاح كل شيء •

وأيده حميد بعد ان هز رأسه وقال :

- صدقت والله •

* * *

حمل عزيز كل المعاملات المطلوبة ، الوثيقة المدرسية ، الجنسية ، شهادة الجنسية ، شهادة حسن السلوك ، عدم المحكومية . . . الخ ، ووضعها في ملف ، انذاك احس وكأنه يحمل بيده جواز سفر الى عالم جديد ، هناك حيث يبحث عن جواب لكل التساؤلات الكبيرة التي واجهته .

واعلن الشيخ علي :

– سأرافقك ، لا يمكن ان اتركك وحدك .

ويقول عزيز :

– لا تخف علي ياوالي ، ثم ان معي اصحابي .

– أبدا ، لن اطمئن ما لم انجز كل شيء بنفسي ، ثم انني اود ان ازمي عصفورين بحجر وازور الكاظميين وبعد ذلك كربلاء والنجف ، فقد لا تواتيني الفرصة مرة اخرى .

وبكت خيرية وهي تودع ابنها ، ولكن دموعها اختلطت بفرحة كبيرة توسدت شعاف قلبها ، وزغردت زكية التي انطقت بقية افراحها منذ رحيل حسنة ، وبدأ الناس يتوافدون على خيرية مهئين فابنها أول شاب في المحلة كلها ينضم الى الجامعة ، أما البقية فكان افضلهم يتوقف بعد الدراسة المتوسطة ليلتحق بالحيش أو احدى الوظائف الكتابية البسيطة .

وقد قالت غالية :

– عزيز ابن حلال ويستأهل كل خير .

تم انجاز الجسر الحديدي ، وفي حفل الافتاح القى المتصرف خطابا تحدث فيه عن الملك والحكومة والمسؤولين وسهرهم على رعاية مصالح الشعب وتوفير الخدمات الضرورية له وما هذا الجسر الا احدى مآثر الحكومة . وقد بدأ الفمز بين الحاضرين من خطاب المتصرف ، لكنهم كموا أفواهم بمد ذلك ، فكلاب الصيد مبثوثة بحثا عن كلمة ضجر قد يطلقها احد الافوا .

كان الجسر عاليا ومهيبا ، يتوج الفرات الرائع وهو ينساب صافيا وحنونا ، وتعالى الزغاريد من أفواه النساء وهن يتذكرن متاعب الجسر القديم واحداثه والاطفال والحيوانات والعربات التي سقطت منه دون ان يقوى سياجه الهزيل على حفظ سلامة عابريه .

أما الجسر القديم فقد سحب الى سوق الشيوخ لينصب هناك هو ومشاكله ، حيث كان العمال يضطرون الى الانتظار ساعات حتى تفتح بواباته لمرور السفن المجللة بالخبوب والخيوانات باتجاه البصرة .

وكانت النسوة ينتظرن ساعات كذلك خصوصا انذابات منهن لشراء النفط ، عمال القطار كذلك وموظفو المحطة وبعض عمال البناء الذين بدأوا بتشبيد البيوت المتناثرة في الجانب الاخر من المدينة ، وموظفو دائرة الانواء الجوية والذاهبون لزيارة السيد خضير كل هؤلاء عانوا من مشاكل الجسر وانقطاعه ، وكلهم فرحون الان بالجسر الجديد .

وخرجت المدينة بكل أبنائها لحضور هذا الحدث الكبير في قاموس حياتها الرتيب ، وطمح الجميع في ان تدوس اقدامهم فوق هذا الهيكل المتين المشيد من الصلب والكونكريت ، والذي راقبوا عملية بنائه يوما يوما وكأنه احد ابنائهم يشب ويزداد فتوة ثم يكتمل شابا مهيبا .

وقد خرج عباس وكامل ومعهما زكية مع الخارجين ، وكانا يقودانها وهي تنقل خطواتها ببطء وتجلس بين فترة واخرى في الطريق مستردة انفاسها .

وبعد ان وصلوا أخذ كامل يشرح لها فوائد هذا الجسر
فتسأله :

- ألا يقطعونه مثل الجسر القديم ؟

فيضحك عباس من مطاردة الجسر القديم لها ويجيبها :

- لا .

فتعود وتسال :

- والسفن كيف تعبر ؟

- من تحت الجسر .

- اسخر مني ؟

- والله ، انه مرتفع جدا ، أنظري .

ويسحبها من يدها ليربها المسافة بين الجسر والماء ويقول مضيفا:

- انها تعبر متى شاءت ، في الليل ، في النهار .

وتنظر الى ارتفاع الجسر الشاهق وتقول :

- سبحان الله ، لكن قل لي الا يقع ؟

ويضحك عباس من تساؤلها فيجيب :

- هل هو مبني من القصب أو الطين حتى يقع ؟ انه مبني من

الحديد والاسمنت حتى لو مشى عليه القطار لما تهدم .

أما غالية فقد ذهبت وجيدة لان جبارا ما زال عند قسمه الذي

اعلنه من قبل :

- لن اضع قدمي علي هذا الجسر ما دمت حيا .

وتبش في وجهه محاولة ان تجمله يتراجع عن قراره :

- اذكر الله يا رجل ، لقد جاء طردك من العمل في صالحك ،
ولو بقيت فيه لقتلنا الجوع ، الحمد لله ، وتحبون شيئا وهو شركم
وتكروهون شيئا وهو خير لكم •

- حسنا ، لكن ليس الان ، قلبي ينفطر عندما أرى مكان
الجسر القديم فارغا ، ذلك الجسر الذي ساهمت بدق اخشابه واحدة
واحدة •

كما تخرج نهلة بصحبة أمها ، وكانت الام مترددة :

- الناس تريد ثيابها

وتقول لها نهلة :

- ماما دعينا نخرج لترى وجه الله ، الناس كلها ذهبت الى
الجسر •

وركض الاطفال والكبار ، والجنود والباعة ، وسواق السيارات
وانتقلت المدينة بجل سكانها ، الى هناك ، لكنهم لم يمكثوا طويلا اذ
تذكروا اعمالهم ومسؤولياتهم فأخذوا يسرعون بالعودة •

أما خيرية وكوثر فقد وعدهما الشيخ علي ان يأخذهما عصرا
معللا ذلك بأن الازدحام سيخف وكذلك حرارة الشمس •

ولم يرافق حميد ابنيه وزكية وظل نائما ، اذ كانت نوبته في
الحراسة للنصف الأخير من الليلة المنصرمة •

واقترح كامل ان يعبروا الى الجهة الثانية من الجسر فوافقوه ،
واخذ على عاتقه مهمة الشرح حيث حدث زكية عن صلاية الاسبجة ،
والرصيف الواسع الذي يسع لمرور العشرات . وتمتت زكية :

- الرصيف الاول كان ضيقا ، تنثر في اخشابها ، وكم مرة
سقطت على وجهي وانا أمشي عليه ، أما في الصيف فمصيبة اخرى
عندما يذوب الزيت ويشوي أقدام المارة .

وكانت زكية تعبره اكثر من مرة في اليوم لتملأ صفائح النفط
وتحملها الى بعض البيوت اذ كان ربحها فيها اكثر من ربحها في حمل
صفائح الماء .

وبعد ان عبروا الجسر جلسوا في افياء النخل المتناثر هناك ،
وفرشت زكية عباءتها وطلبت منهما ان يجلسا فوقها حتى لا تتسخ
ثيابهما ، وعندما مر بائع حمص مسلوق وهو يدفع عربته اسرع
اليه عباس واشترى بعشرين فلسا ، ثم وزع الكمية بينهم بالتساوي ،
وراخوا يلتهمونه بتلذذ .

كانت زكية سعيدة بهما ، فهما اليوم ملاذها ومفجرا كل عواطفها
الامومية المخترنة . وكانت تحسهما كالضوء المتسلل الى ظلامها
الثقيل والمبعد للوحشة عن دقائقها الخالية .

قال لها كامل في طريق العودة وهو يضم يدها المعروقة الى
صدره :

- عندما أخرج سأرسلك الى الحج .
- وتفرح زكية من وعده الصادق ، لكنها ترد عليه بألم :
- وهل سأظل حية حتى ذلك اليوم ؟

– عمرك طويل يا جدتي وستريين أبناءنا ايضا •

أما عباس فيقول لها :

– سأتيك بخادمة ، أو لماذا الخادمة ؟ ستخدمك زوجتي ،
وسأطلقها والعن والديها ان امتعت عن ذلك ، لولاك يا جدتي لكان حال
الضيم حالنا •

ويزداد الحماس في ديبب خطواتها ، اذ انها لم تعد المشي بنعلين
كل هذه المسافة الطويلة •

وعندما دخلوا الزقاق توقفوا أمام بيت الشيخ علي ، وقالت
زكية :

– سأدخل لأحدث أم عزيز عن الجسر •

وقبل ان ترد خيرية على تحيتها بادرتها بالقول :

– جسر ثابت مثل الجبل ، عبرت فوقه ولم يهتز او يتحرك ،
وليس مثل جسرنا القديم حتى لو مشت عليه نملة يختض كله ، أما
اذا اشتد الهواء فلا يمسون به الا في سوق الشيوخ أو في الهور •
وقالت خيرية :

– سنذهب عصرا ونمبر فوقه ، لقد وعدنا أبو عزيز بذلك •
ثم تلقي بالكنسة من يدها ، وتمسح انفها بطرف فوطتها ، وتنهض
زافرة وهي تضيف بهمس :

– اتريدن الصدق ؟ الشيخ علي ليس على بعضه هذه الايسام
– ولماذا كفايا الله الشر ؟

وتزفر من جديد طاردة اجهاد الكنس ثم تجيب :

- قلبه على عزيز ، منذ ان سمع ان في بغداد مظاهرات
واضرابات، تصوري البارحة لم يغمض له جفن ، وكلما فتحت عيني
وجدته صاحيا •

وتبس زكية بصوتها الطيب :

- لماذا أرسله الى بغداد اذن ؟

- ليس في الناصرية كلية ، وكل الذين ينهون دراستهم في
الثانوية يذهبون الى بغداد •

- لكن ليس لكم فيها صديق ولا قريب ؟

- وهذا مايؤلم الشيخ علي •

وتطرق زكية مفكرة ، ثم تقول بعد برهة :

- ولماذا لا يذهب ويأتي به ؟

- ودروسه ؟

وتظل زكية حائرة ، فالامور اكبر من تصورها ، ولكنها تعود
وتقول من جديد :

- يجب ان يذهب ليطمئن عليه ، حتى تنفض هذه المصائب •

وتهز خيرية رأسها بحيرة وتتمتم :

- لا أدري والله •

* * *

أعلنت الاحكام العرفية في العراق ، وشكلت حكومة عسكرية
ترأسها رئيس أركان الجيش ، وبدأ عمله لضرب الانتفاضة التي امتدت
الى الكليات والمصانع والمدارس ، واحتلت الدبابات الشوارع والكليات

بعد ان هرب رجال الشرطة أمام الاف المتظاهرين ، وارتفعت لاول مرة
شعارات تهتف بسقوط الحكم الملكي ، ورددت الحناجر الغاضبة :

- ليلحق فيصل بفاروق •

واستفحل الحقد في قلوب رجال السلطة ، والنوا امتيازات
الاحزاب ، واغلقت صحف المعارضة ، واقتيد العشرات الى السجون
والمشائق •

ولم تقتصر المظاهرات على بغداد فقط ، بل امتدت الى معظم مدن
العراق • وامتلات شوارع الناصرية واسواقها ومدارسها ودوائرها
بالمشورات السرية ، كما اعتصم طلاب الثانوية في مدرستهم وكبسر
الحقد وازداد القراع •

* * *

عاد الشيخ علي بابنه من بغداد ، وكان عزيز لا يريد ذلك ، لكنه
أذعن لالاحاح ابيه ، وكانت السلطة قد اصدرت قرارا عطلت فيه
الدراسة في جميع الكليات والمعاهد العالية •

وقد قال الشيخ علي لولده وهو يحمل حقيته من القسم الداخلي
الى محطة القطار :

- لا استطيع ان اترك هنا ، خصوصا بعد ان عرفت انك قد
ساهمت في المظاهرات •

اختير كامل ضمن منتخب المدينة في كرة السلة ، وتهيأ لمصاحبة
قريقه في اول لعبة له خارج الناصرية حيث سيلعب مع منتخب بغداد •
وقد نقل القطار من الناصرية الى أور اعضاء الفريق ومدربهم
ومجموعة كبيرة من المشجعين الذين حملوا معهم المزامير والدرابك
والدفوف •

وكان عباس في وداع اخيه حتى محطة أور حيث يمكث المسافرون
قراءة الساعة في انتظار القطار القادم من البصرة والصاعد الى بغداد ،
وبعد ان جاء احتضن عباس اخاه وقبله على خده ولم يمسك نفسه من
البكاء انداك فهذه اول مرة يفترقان فيها •

ثم نطق عباس متظاهرا بالابتسام :

- لا اريدك ان تخطيء الهدف مرة •

واستجاب كامل لا بتسامته وقال :

- اطمئن ، عندما تصبح الكرة بيدي فاحسب ان الهدف قد

سجل • ويعود عباس ويوصيه :

- اياك من أبناء بغداد ، فقد يضربونكم اذا غلبتم فريقهم •

- ومن قل ذلك ؟

- كثيرون •

ويربت على كتف أخيه ويقول بثقة :

- هذا كذب ، الروح الرياضية هي التي تنظم العلاقة ولا تجعل

فريقا يسيء الى اخر •

* * *

كانت بغداد في خيال كامل لغزا غامضا وهو الذي لم يعرف من
خارطة الدنيا غير مدينته والبساتين المحيطة بها ، أما أطول رحلاته فتلك

التي يزور فيها « أبو هاون » قرية والده ، وقد انقطعت منذ مقتل ابن عمه عبد •

يطرق قليلا ويبتسم لنفسه من وقع تلك الذكريات الصافية بينما يتعالى الفناء والهتاف من أصحابه فتضح بهم عربة القطار •

في رحلاته لـ « أبو هاون » يطارد طيور الحجل مع أقرانه بعد ان تملأ حواصلها بنبات الخنطة قبل ان يتحول الى سنابل حلى بالحبوب ، انذاك تنقل هذه الطيور ولم يعد في مقدورها ان تحلق مبتعدة ، فيمسكون بها بعد مطاردة قصيرة بين الترع والواح الزرع وقطعان الماشية ، كانوا في مطاردتهم لها حفاة يدسون أطراف ثيابهم في ملابسهم الداخلية ، وعندما يسكون بها يهرعون الى بيوتهم فرحين فقد ضمنوا وجبة طعام نادرة •

وعندما توقف القطار في سدة الهندية نزل المدرب وجاءهم بعدة صحنون من القشطة ، وزعها عليهم وهو يقول :

- كلوا حتى تغلبوا فريق بغداد •

ويضيف :

- اذا غلبتم سيكون الطعام حلالا عليكم ، والا فأنتم لا تستحقونه •
يضحكون ويتناولون منه الصحنون ، ويدأون الأكل بتلسذ

ونهم •

* * *

حمل كامل في جيبه عنوان كلية الآداب التي انضم إليها عزيز ،
والذي سبقه في السفر الى بغداد بعد ان فتحت الجامعة ابوابها ، كما
حمل معه عنوان القسم الداخلي الذي يسكن فيه فهو الشخص
الوحيد في بغداد الذي يفكر في البحث عنه وملاقاته •

أخبرهم المدرب :

- لقد حجزوا لنا في فندق الشعب •

وتساءل صوت :

- وأين يقع ؟

- في شارع الرشيد ، لكن قل لي بماذا يهكم موقعه ؟

ويضحك السائل وهو يجيب :

- مجرد فضول يا أستاذ •

- المهم ان نجد مكانا ننام فيه ، الرياضيون ينامون على الارض
ولا يأبهون •

وحملتهم سيارة خشيية من محطة القطار مارة بـ علاوي الحلة ،
ومن ثم عابرة الجسر ، وكانوا يمدون رأسهم من نوافذ السيارة ليتعرفوا
على البنائيات ووجوه الناس •

قال احدهم باستهانة :

- أهذه بغداد ؟ انها اوسخ من الناصرية •

واعتبروها نكتة فههت لها حناجرهم الشابة التي كانت تبحث عن
اوهمى المبررات للضحك ، فكأن ليلة من السهر والمداعبات والغناء لم
تكفهم •

ودخلوا الفندق ، فوجدوه بسيطا ومتواضعا ، وتوزعوا كل اربعة
في غرفة من غرفه الواسعة ، وتنافسوا من أجل الحصول على الغرف
المطلّة على الشارع •

* * *

اختير النادي الاولمبي في الاعظمية مكانا للمباراة ، وقد ففر
اعضاء الفريق الوافد افواههم دهشة من سعة هذا النادي ، وكثرة
ساحاته ، الموزعة ما بين التنس والطائرة والسلة والمنضدة ، اضافة الى
ساحة الالعاب الاولمبية والجمناستيك •

وامتلا الملعب بجمهور كبير ، وعندما ابتدأت المباراة بان الوجوم
واضحا على فريق الناصرية ، ولكن اللاعبين حاولوا جاهدين الانسجام
مع اللعبة وهم يبحثون في وجوه اعضاء الفريق الخصم وكذلك في وجوه
الجمهور عن صدى وجودهم وقدرتهم •

وبعد ان اخذوا يطمثون الى الجو بدأ اللعب يقوى ، وتابعت
الاهداف يصحبها رنين صافرة الحكم •

وسمع كامل صوت ابن عمته عزيز وهو يشجعه :

– همتك يا كامل •

ابتسم وهو يلوح له بيده فيزداد حماسه للعب •
وعندما انتهت المباراة كان فريق الناصرية قد خسر ولكن بفرق
قليل في الاهداف •

* * *

جمعهم المدرب وقال لهم :

- لقد اجدتم ، كان لعبكم ممتازا ، بعضكم يتصور انسي
سأوبخكم ؟ أتم تستأهلون الثناء لانكم اجتزتم التجربة بنجاح في أول
مباراة لكم خارج مدينتكم وقد نازلتم أقوى فرق العراق اطلاقا •
وصفقوا للكلمات مدبرهم التي امدتهم بالحماس والثقة ، وتعانقوا
بفرح واخاء •

* * *

واخذه عزيز في جولة ببغداد ابتدأت بمشاهدة احدث افلام
فريد الاطرش في سينما « روكسي » ، ثم أجلسه في مطعم كبير ، بعد
ذلك تمشيا باتجاه شارع أبي نواس ، ومن ثم الى القسم الداخلي
الذي يسكن فيه •

وفي اليوم اللاحق جاءه مبكرا الى الفندق واصطحبه الى كليته
وهناك عرفه على بعض اصدقائه المقربين ، وعندما جلس في نادي
الكلية شاهد لأول مرة فتيات سافرات يجلسن مع الرجال ويناقشنهم
في مواضيع عديدة ، الدروس والسياسة والنظام •

وقد همس لعزير :

- سأنابر في دراستي حتى انهي الستين المقبلين لي وانضم الى الكلية ، فالجياة هنا جميلة رغم البعد عن الاهل .

لكنه يضيف بأسى :

- خوفاً فقط من ان يرغموني على دخول معهد التربية الرياضية .

- ابدأ ، ليس من حقهم ذلك ، تستطيع ان تنضم الى أية كلية ترغب بها .

ويفرح كامل من قوله ويعلن :

- اريد ان ادخل كلية الحقوق ، هناك ظلم كبير ، فلعلني استطع ان ادافع عن جانب منه .

- يجب ان لا نكون مثاليين يا كامل ، فالمسألة ليست هكذا ، وانما هي مسألة نظام يجب ان يبحث كله ، ان يهدم من أساسه هو ومليكه ووصيه ووزراؤه وعملاؤه .

يلعب ريقه ليواكب ديب الحماس في صوته ويواصل :

- وهذا لن يتحقق بسهولة ، انه يحتاج الى تضحيات كبيرة ، الامة العربية صفت كثيراً ، وعانت طويلاً ، لكنها لم تدعن ، ولم ترضخ ، ثورة مصر كانت البداية ، وهنا شاهدت بعيني وقائع اتفاضة تشرين فامت بهذا الشعب وبالامة التي انجبتة عندما كنت في الناصرية .

كنت غير منضو تحت لواء أحد الاحزاب المعروفة فهي لا تمثل
طموحي ، ولم أدر ان هذا الحزب موجود فعلا ، ومناضلوه يدعون
الى الوحدة العربية والاشتراكية ويشرون بهما ، هذه الوحدة التي
ستكون عامل قوة لنا ، وبعد ان انضممت الى هذا الحزب احسست
بأنني قد حققت اهم انتصار في حياتي ، وان اعلامي لم تضع هباء •
- أما انا فكانت علاقتي السياسية الاولى مجرد نزوة ساذجة ،
لكنها اورتني مرارة باقية •

وعلق عزيز على قوله :

- هذا ليس نهاية كل شيء ، الايام ستعديك بأشياء كثيرة ،
وستجد ان التجارب الاولى لا بد منها فهي النول الذي تسج عليه
شخصيتك •

ويهنز كامل رأسه بالموافقة ، بعد ذلك يعلق بدعابة :

- انني لاعب كرة مشهور الا يكفي هذا ؟

٤

عطس الشيخ علي ، فهب الجالسون مرددين بصوت واحد :
- رحمكم الله •

فأجابهم بعد ان مسح انفه بمنديل استخرجه من جيب سترته :
- ورحم موتاكم •

بعد ذلك تحسس شعره الحليق وقال :

- قرأت اليوم طالع جبار • اسألوه ماذا رأيت فيه ؟

ضحك جبار بصوته الرنان ، وكادت الشامة الكبيرة ان تنط من
وُجنته وعلق :

- الله يسمع منك يا أبا عزيز •

وتساءل حميد مداعبا :

- هل وجدت انه سيتزوج ثانية؟

ورن صوت جبار من جديد :

- أعوذ بالله ، أم غلبو كافية •

ثم خفض صوته وتساءل :

- الا تحتاج الزوجة الجديدة الى قوة؟

وعلا صوت هادي الفراش وهو يبادر للرد على سؤاله :

- بالطبع •

- أنا لا أملك هذا •

ونطق حميد :

- أسفي عليك ، هكذا تستسلم ببساطة؟

- الكبر يا أبا عباس ، صار عمرنا مثل قصة عتر ، تمدينا

الخمسين منذ زمن •

وردد الشيخ علي مبيدهم الى ما أثاره :

- تبأت له ان يذهب الى الحج •

فرددوا بصوت واحد :

- حج مبرور • ان شاء الله •

وعاد جبار من جديد ليقول :

– للجميع •

بعد ذلك التفت الى حميد وقال :

– اسمعوا يا جماعة واحكموا ، هل اتم معي ؟ أم ضدي ؟

وتساءل هادي :

– خير ؟

– تعرفون حالة حميد ، المرحومة ماتت منذ زمن ، والله سبحانه وتعالى لم يقطع به وبأولاده فبعث لهم بزكية ، لكن زكية كبرت ولم تعد لديها القدرة ، حتى بصرها ضعف ، ومن رأيي ان نجد له ابنة حلال •

وقاطعه حميد قبل ان يستمع الى اي تعليق :

– هذا شيء لن يحدث ، عريس في اواخر عمري ؟ ثم من يضمن

ان من انزوجها ستكون رحيمة بولدي وبزكية ايضا ؟

وتفوه هادي :

– مع الحق ، والزواج قسمة ونصيب •

– وانا لا اريد ان اعرض نفسي للقسمة والنصيب ؟

ثم تنحج ليواصل القول :

– اني أفكر بتزويج عباس فبعد سنة سيكمل الثانوية ويتوظف ،

اذلا قدرة لي على ارساله للكلية •

وقال الشيخ علي :

- كوتر موجودة ، خذها بماءتها •
- واجاب جبار :
- بارك الله فيك ، انها ابنة عمته وتعرفه ويعرفها •
- وهنا أعلن هادي :
- يا جماعة اردت ان اخبركم بشيء ، سأزوج ابنتي الى ابن عمها •
- فأجابوا بصوت واحد :
- بالخير والبركة •
- وتساءل حميد :
- الجندي ؟
- نعم ، ولكنه سيسرح بعد ايام ، ولا اريده ان يعود الى الهور من جديد ، ثم انه شاب نابه •
- وماذا سيعمل بعد تسريحه ؟
- لا أدري • سأبحث له عن عمل •
- ونطق حميد بتذمر :
- واين ستجده ؟ سينتهي به المطاف فراشا مثلك او حارسا مثلي •
- ووجدها جبار مناسبة لان يطلق بدعابة :
- او صاحب مقهى مثلي •
- وهنا قاطمهم الشيخ علي قائلا :
- لدي فكرة •
- وتساءل هادي :
- وما هي ؟

- دكان ياسين مازال فارغاً ، وليس في المحلّة دكان واحد ، فلماذا
لا تستأجره له ؟

وهب هادي فرحا وهو يقول :

- أفكارك عظيمة دوما يا أبا عزيز ، لا أدري لماذا لم اتبه له من
قبل ؟

ثم هز رأسه وهو يضيف :

- سأستأجره غدا .

وأيد جبار ما سمعه قائلا :

- خمسون دينارا تكفي في البداية ، وبعدئذ سيوسع عمله
تدرّجيا . انه شاب والدنيا أمامه .

واجابه هادي :

- ليس لديه فلس واحد ، حتى الزواج سأصرف عليه أنا ، انه
ابن اخي ومن دمي ولحمي .

ثم تأفّف بألم وعاود القول :

- الله رزقني بألم نهلة ولولاها لما كفانا الراتب لنصف الشهر .
وهز حميد رأسه مؤيدا وقال :

- السمكة التي كنت اشترىها بدرهم صارت بأربعة .

ونادى الشيخ علي على زوجته يستحثها على جلب النسي
فجاءه صوتها :

- اصبر قليلا .

بعد ذلك ينادي ابنته :

- بابا كوثر ، هات مسبحتي •

ونظقت كوثر التي كانت جالسة ترتق فتقا في احد ثيابها تحت
ضوء المصباح النفطي :

- واين هي ؟

- لا أدري ، ربما على المنضدة في غرفتي ، أو طويتها مع سجادة

• الصلاة •

تأملها جبار وهي منهكة في رتق الثوب وقال :

- يا جماعة ، اسمعوني •

- خير ؟

- الحكومة جاءت لنا بالماء ثم بالكهرباء الى الشارع ، ولكنها لم

تسمح لنا بأن ندخلها الى بيوتنا ؟

• واجابه حميد :

- يقولون ان معظم بيوت المحلة من القصب والبواري ،

والواجهات فقط من الطابوق ، وان سمحوا لنا بأدخالها الى بيوتنا

يخافون من ان تكون سببا في الجرائم كما حدث في بعض المحلات •

وردد هادي وكأنه وجد الحل :

- لماذا لا نقدم عريضة الى رئيس البلدية ؟ نطلب منه ان

يفجسوا بيوتنا ، والصالح يسمحون لصاحبه بالتأسيس ، لماذا نحرم

أنفسنا من هذه النعمة ؟

وقال جبار :

- آلمني منظر كوثر والله •

وتناول الشيخ علي مسبحته وأعلن :
- فكرة لا بأس بها ، المريضة سهلة ، والطابع بدرهم ، سأكتبها
غدا وتوقعون عليها جميعكم ، ولن نخسر شيئا .
وعاد هادي الى القول :

- سأملأ البيت بالمصايح في عرس نهلة واجعل الليل نهارا .
بعد ذلك احضرت كوثر صينية الشاي وبدأت بتوزيع الاقداح
على الجالسين وعندما تناولت جبارا قدحه همس لها :
- يوم عرسك .

واطرقت بحياء اثوي ، بينما ضحك الشيخ علي وقال :
- كلهم سيتزوجون ونصبح اجدادا . اي والله .
وبعد ان انتهوا من ارتشاف شايبهم نفت جبار الى الشيخ علي
وسأله :

- ماهي أخبار عزيز ؟
- بخير . وصلتني منه رسالة البارحة . يبلغكم التحية جميعكم
واحدا واحدا وبالاسماء ؟
واطلق هادي تساؤلا غير متوقع :
- حتى أنا ؟

وهز الشيخ علي رأسه بالايجاب ، ثم سأله باستغراب :
- ولماذا يستنيك أنت ؟

طأطأ هادي رأسه ونطق وكأنه يكلم نفسه :

- كانوا يتهمونني بأنني جاسوس على الطلبة ، والبعض ذهب بعيدا في
تصوره أنا الذي لا أعرف كتابة اسمي ؟ حتى الامضاء امضيه بأبهامي ؟

وهز الشيخ رأسه بينما راحت أصابعه تداعب حبات مسبحته ،
وقال مؤكدا ما فاه به هادي •

– سمعت بهذا •

واضاف :

– ما اكرر التهم !

تحسر هادي بحرقة ثم قال :

– خرجوا علي ذات ليلة من ساحة المدرسة ، كانوا أربعة شبان
ملثمين ، كموا فمي ، واوقفوا بي ضربا ثم تركوني ممددا فاقد الوعي
وفروا هارين •

وترددت صيحات الاستنكار من الجالسين :

– لا حول ولا قوة الا بالله •

وعاد هادي ليروي بقية ما حدث له :

– كانوا يصرخون بي أيها المخبر الوسخ ، ولم يتركوا صفة
بذيثة الا والصقوها بي ، لكنني والله العظيم لم اعرف ان اخبار
المدير بأسماء من يكتبون على الجدران أو على السبورات سيخطني
مكروها لهذا الحد •

ثم انفجر باكيا وسط زهول الجالسين ومن وسط المله وانكساره
قال :

– كنت أظن انني اعمل ما فيه فائدتهم ، أقسم لكم بكل

المقدمات •

٥

بدأت الحياة مبكرة في الزقاق • وخرج الرجال الى اعمالهم
وانطلق الاطفال يلعبوا • ارجلهم حافية تدوس الاوساخ والتراب ،
وفوق وجوههم يحوم الذباب الذي انتقل اليها من اكوام القمامة التي
ترميها النساء بجانب كل باب من أبواب الزقاق •

وبدا الاتساخ واضحا على واجهات البيوت التي بنيت من
الطابوق بناء على أوامر رئيس البلدية • وظهرت لمن يراها لأول مرة
وكان اعواما طويلة مرت على تشييدها •

وفي الجو كانت تفوح رائحة السمك المجفف ، ممتزجة برائحة
الماء الاسن الذي تكدس في المجرى الضيق .

وبين فترة واخرى تخرج احدى النساء من بينها قاصدة السوق ،
وقبل ان تتعد حاملة قفنها على رأسها تنادي احد ابنائها وتوصيه بأن
يعتني بأخيه . أو تحذره من الشجار مع أقرانه .

ودخل هادي الزقاق وهو يقود خروفين كبيرين ، وقد أمسك
بشنون كل منهما بيد ، وكان التعب واللهات باديين عليه .

وتوقف الاولاد عن اللعب وهم يشاهدونه . وبعد فترة من

الصمت المسائل اخذوا يبسبون :

- ماذا يفعل بهما ؟

- سيذبحهما .

- ايذبح هذين الخروفين الكبيرين ؟

- نهلة ستزوج ، الا تدرى ؟

- صحيح ؟

- والله العظيم

- ومن سيتزوجها ؟

- ابن عمها .

- الجندي ؟

- كان جنديا ثم سرحوه

- ولكنه اكبر منها؟

- ومن أدراني انا؟

وبعد ان يدلف الى بيته يكف الاولاد عن التطبيق ، ويمودون

ثانية لمواصلة العابهم .

وعندما يقوم مراقب البلدية بجولته المعتادة في المنطقة يدخل

الزقاق وخلفه اثنان من الكناسين ، يبصق على الارض ويطلق حزمة

من الشتائم .

- القذارة ، وفوق هذا يرفعون عريضة لرئيس البلدية يريدون

ان يدخل الكهرباء بيوتهم؟

ويقول احد الكناسين :

- ناس اصابهم البطر .

ويعلق الاخر :

- لم يشبعوا بطونهم ويريدون كهرباء؟

ثم يخطو باتجاه بيت الشيخ علي ، ويطرقه ، فيأتيه صوت خيرية

من الداخل .

- من؟

يتنحنح ثم يجيب :

- مراقب البلدية .

- أمر؟ خدمة؟

- هل الشيخ علي موجود؟

- انه في دكانه .

ويردد المراقب وهو يهيم في الابتعاد عن الباب :

- اخبريه ان رئيس البلدية وافق على ما جاء في عريضته ، وعليه

ان يراجع مديرية الكهرباء ، افهمت ؟

وتبتهج خيرية بما سمعت وتهتف :

- بشرك الله بالخير .

وعندما تأكد من ابتعاده تطبق الباب ، وتدخل منادية على ابنتها :

- كوثر .

- نعم ماما .

- رئيس البلدية وافق على عريضة أليك ، الكهرباء ستدخل

البيت .

- انها بشارة مفرحة يا أمي .

وتخرج خيرية مسرعة لتخبر غالية بما جاء به مراقب البلدية .

وتمد غالية رأسها هي الاخرى ناظرة الى بيت هادي من فوق السياج

القصبي الواطى ، الذي يفصله عن بيتها وتادي :

- أم نهلة ، يا أم نهلة .

وترك ماكآة الخياطة وتخرج على صوت النداء فتبادرهما

بالقول :

- ابشرك ، وافق رئيس البلدية على المريضة •

وتطلق أم نهلة زغرودة ، يخرج زوجها على صوتها وهو يسأل:

- ما الذي حدث ؟

- الكهرباء ، الكهرباء •

وفهم هادي مقصدها فأعلن بصوت فرح :

- والله يا غالية سأشتري خمسين مصباحا ، اختارها ملونة مثل

التي نضعها في باب المدرسة ، في يوم ميلاد الملك ، أو عيد الجيش ،

حمرء ، وصفراء ، وخضراء •

وتؤيده غالية :

- وماذا عندك غير نهلة ؟

وينتقل الخبر من بيت لآخر • وكانت الزغاريد التي تنطلق من

هذا البيت أو ذاك دليلا على وصول الخبر إليه •

وارتدى هادي ثيابه على عجل وقبل ان يخرج أوصى ابنته :

- بابا نهلة ، ضعي صفيحة ماء أمام الخروفين •

وسأله زوجته :

- الى أين ؟

- .. سأذهب الى الصفاة لأزف الخبر للشيخ علي ، وربما أذهب
بمد ذلك الى مديرية الكهرباء ، خير البر عاجله •
وتتمت زوجته :
- بهذه السرعة ؟
- نعم فربما يدلون رأيهم •

٦

سألهم الشيخ علي :

- اسمعتم ؟

- ماذا ؟

- انتهت وزارة نور الدين محمود ؟

وسأله حميد :

- نور الدين محمود رئيس أركان الجيش ؟

- نعم ، وهل هناك غيره ؟

ثم يتطلع الى محتويات دكانه • والى المضدة التي أمامه ، وكتبه
الدينية التي ترفد فوقها ، وقال :

- أدى دوره وانتهى •
- ومن جاء بعده ؟
يزفر الشيخ علي ويقول :

- لا أدري ، هناك الكثير من الجاهزين •
ويردد رجل اخر من اصدقاء الشيخ علي وهو يهز رأسه :

- معلوم •
أما عباس فلم يطلق بكلمة ، كان ينصت لاقوالهم فقط ، لكنه
افصح عما في نفسه وقال :

- أدى دوره كما قال عمي ، أحكام عرفية ، والجيش اجتل
الشوارع ، لو سمعتم ماذا فعلوا ببنداد ؟
ويتبه حميد الى ابنه الذي تكلم بصورة لم يتوقعها ويسأله :

- ومن ادراك أنت بهذا ؟
- الجرائد والاذاعات والناس •
وينهره حميد :

- اسكت ولا تمد رأسك في مثل هذه المشاكل •
ويحرجه كلام أبيه ، ويظأطيه رأسه منكسراً ، يمسح
الشيخ علي يده على شعره ويقول :

- عباس رجل ، ولو انه غير بارز في دروسه ، لكن ليس هذا
مهما •
ويستجمع عباس شجاعته ويخاطب اياه بشيء من العتاب :

- أليس من حقي أن أشارككم الحديث ؟

ويقول صديق الشيخ علي :

- أنت تلميذ في الثانوية ونحن نتعلم منك •

ثم يوجه كلامه الى حميد :

- ليس لك الحق في هذا أبداً •

ويطأطأء حميد رأسه مغلوباً على أمره ، لكنه يقول بعد برهة :

- يا جماعة لم اغضب الا من حرصي عليه ، للحيطان اذان

اليوم ، والحكومة مكلوبة ، ولو رأيتم الموقف في السراي لمرقتم

مضى ما أقوله ، عشرات المتقلبين وكلهم طلبة في مثل سنه •

ويردد الشيخ علي بحرقه :

- لا تذكرني بهذا يا حميد وتشمل قلبي ، عزيز في بغداد

وانا هنا فكيف اهدأ ؟

- الله يساعدك •

- والله يا جماعة الخير كلما أسمع خبر مظاهرة اضح يدي

على قلبي ، ولا أهدأ الا بوصول رسالة منه •

- حقتك ولا احد يلومك •

بعد ذلك يمد يده ليستخرج ساعته من جيبه • يفتح غطاءها

بدفعة من ابهامه ، ينظر اليها ثم يطبقها بنفس الخفة ويميدها الى جيبه

وهو يملن :

- سأغلق الدكان •

ثم يضحك ويتابع :

- ليست هناك امرأة تنوي قراءة طالما في مثل هذا الوقت ،

الشمس على وشك الغروب •

واستجاب الجميع لاقتراحه وخرجوا جميعهم من الدكان بعد ان كانوا جالسين في باحته الواسعة ، وهب عباس الى القول :
- أنا سأغلق الدكان ، دعه لي .
- بارك الله فيك .

ويسحب باب الدكان بقوة ، ثم ينزل القفل في الحلقة المخصصة له ، ويطبقه بضغطة قوية ، يفرك يديه ببعضهما ثم يدهسهما في جيب بنطاله بعد ذلك ، وسألهم حميد :
- الى أين وجهتكم ؟
ويقول الشيخ علي :

- الى الجامع . منذ ثلاثة أيام لم أذهب إليه ، وسيعاتبني الشيخ حسن على ذلك حتما .
- الرأي رأيك .

ويستأذن عباس للذهاب ، وعندما يتعد عنهم يقول حميد :
- رافقتني الى السوق ، اشتريت له قميصا واعطيته للخياط .
ويقول الشيخ علي :
- لكنك غير محق ، دعه يتكلم ، ولا تزجره فهذا يحطم فنوياته ويضنف شخصيته .

واخذ الرجال الثلاثة يخطون ، سالكين المر وسط الصفات حيث السلال المركونة ، ورائحة السمك ، واقفاص الدجاج والخضر الخائسة ، وقال حميد :

- الله يرضى عنك ياشيخ علي ، ألم تجد لنا طريقا غير هذا ؟
ويجيبه وهو يقفز ساقية صغيرة :

- انه أقصر طريق ، وعلينا ان نتحملة لهذا السبب .

٧

جلس عباس وحيدا على العشب ، وامامه تكنة الشرطة الخيالة ،
الحركة منها واليها لا تتوقف ، رجال الشرطة يقودون خيولهم ، أو
ينظفونها بالفراشي المخصصة لذلك .

وعن يمينه كان يتصب خزان الماء الكبير متسامقاً يربو علوه
على ضفتي أطول نخلة في بستان « زامل » الذي يزداد نخيله كافة
كلما اوغل العابر فيه .

اتبه عباس الى كتابه ، لقد فتحه على أحد المواضيع لكنه لم يستطع
الا قراءة بضعة سطور ، لم يرسخ أي منها في ذاكرته .

لقد جرت الامور بسرعة بحيث لم يستطع القيام بأي عمل من
شأنه ان يوقف مداها ، انه مازال يتذكر حديثه مع نهلة في حديقة
« غازي » وكيف نقلت اليه رغبة والدها في تزويجها لابن عمها ،
ولكنه لم يأخذ اقوالها مأخذ الجد ، تصورها واحدة من مداعباتها ،
كان لا يريد ان يصدق بأن هذا الشاب الطويل الخشن المظهر
سيكون زوج هذه الصبية الناعمة .

صنع يده على جبينه ، وهو يتصوره معها في فراش واحد ،
ان اللبة غير متعادلة قطعا ، لكنها تمت ليلة البارحة .

لم ينم الزقاق حتى ساعة متأخرة من الليل ، قرع الدرابك ،
وشدو المغنين ، وزغاريد النسوة ، وحاول ان ينام ، توسل بصلاة
أمام هذا الغياب لان يتوسد اعصابه المستوفزة ، لكنه لم يستجيب لهذا
التوسل ، كان وحيدا في البيت ، والده ذهب ليشاهد الرقص ،
وكذلك كامل ، حتى زكية ذهبت هي الاخرى ، وقد سأله قبل ان
تخرج :

– لماذا لم تأت ؟

أجابها :

– عندي امتحان

ومضت تستحته :

- تعال لتشاهد الراقصين ، الناس كلهم فرحون ، انه اول فرح
يقام منذ سنوات •

- ليس لي مزاج ، اتركيني أرجوك •

لكن حميدا لم يلح عليه بالخروج ، وبعد ان هدده اذا التقى
بنهلة لم يجد من المناسب ان يضيف له جرحا جديدا ، على الرغم من
ارتياحه لما جرى ، فنهلة رغم رغم كل شيء غريبة عنهم ، واذا اراد
تزويج عباس فكوثر هي الملائمة •

وقد ساهم حميد في موكب الزفاف ، حيث استأجر سيارة
ركب فيها جوار السائق ، كما ركب كامل وزكية في القسم الخلفي ،
وكان انذاك في أبهى صوره ، عقاله يستقر على رأسه بخلاء ،
ووجهه حليق والصبح قد مر على شاربيه المشتملين بيضا •

وقد بدأ موكب الزفاف من رأس الزقاق ، اذ يتعذر دخول
السيارات اليه ، وانطلق باتجاه المستشفى ، بعد ذلك في شارع
الهواء باتجاه الغرب حيث استدار الى اليمين ليمضي نحو الجسر
الجديد • ثم بمحاذاة النهر حتى محلة الصابئة • أما طريق العودة
فكان في شارع الهواء •

سيارات كثيرة ، غالية وجبار ، الشيخ علي وعائلته ، بعض
الفراشين في المدرسة الثانوية ، وتقدمها سيارة العروس وخلفها
مباشرة سيارة المريس •

وكان التصفيق يتعالى مضجوبا بالآغاني والاهازيج على امتداد
المسافة التي سلكها موكب الزفاف .

لكن عباسا لم يساهم في كل هذه الطقوس . دخل سينا
« البطحاء » وشاهد فلما عن القراصنة . نسي احزانه بعض الوقت ،
لكنه بعد ان خرج الى الشارع داهمته من جديد .

لقد رحلت نهلة عنه ، ولديه منها رسائل صغيرة ، كتبها بقلم
الرصاص ، وبخطها الرديء ، بأوراق انتزعتها من دفاترها المدرسية
المخططة .

استخرج الرسائل ، واعاد قراءتها ، بينما كانت أصوات
الهلال تقرع أذنيه ، امتلاءً بالضجر واليأس فجأة فحملها الى التور
ثم اشعل فيها النار ، وخرج الى الشارع .

واخذ يمشي حاثا خطاه في الدروب الخالية ، توقف أمام جامع
الشيخ حسن ، ووضع قطعة نقود في يد الشحاذ الاعمى الذي كان
يتمدد امامه ساكنا بعد ان تعب من التوسل واستطاف المارين
ليصدقوا عليه .

ثم تطلع الى البيوت التي هجرتها البنايا اضطرارا ، وضحك
من مجدهن الزائل ذلك ، بعد ذلك توقف أمام ساحة كرة القدم
الكبيرة ، وقد تهدمت جدرانها ، وصارت ممرات يسلكها الزاهبون
الى السوق .

استدار ومضى باتجاه شارع الهواء ، والتهم صحننا من الباقلاء .
بعد أن اغراء نداء بانمها • وعندما عاد الى السير من جديد جاهد لأن
يدندن بأحد الالحان الريفية التي طالما سمعها وطرب لها :

(أدور عليك يا اشكر وانت هينه
وأبد لاتظن كلبى واتتهينه
جذب يا الكلت بنا واتتهينا
الهسة ونار فرگاهم سرية)

والحان اخرى ، فجرها حزنه وانسحاقه ، وتمش بالحفر ، وقفز
مساحات مغطاة بمياه الفسيل ، وعندما يدخل شارع الهواء ، يتذكر
أشجاره السامقة التي كانت تتوسطه فيردد بسخط :

- اي غبي ذاك الذي أمر بقطعها ؟

وعندما يصبح على مقربة من بيته يتاهى اليه صوت الدرايك
فيستدير مبتعدا من جديد ، وامام نادي الموظفين يجلس على الرصيف
ويمدد ساقه أمامه • يتطلع الى الشارع الخالي الذي لا تقطع صمته
الا عربة بمض السكارى الذين يقذف بهم النادي ويواصل القناء •
يتنبه الى قطة تجلس على قائمتيها الخلفيتين ، وتهز ذيلها
بألقة يلتقط حجرة ويرميها •

* * *

يخرج بعض رجال الشرطة منتطين صهوات جيادهم المفاة ،
ويخمن ان وجهتهم ستكون الى احدى القرى القريبة لكبح غضبة
احد الفلاحين ، ثم يهز كتفه ويمط شفته بلا مبالاة • ويحاول ان
يستجمع ذهنه المشتت ويقرأ بعض السطور ، لكنه لم يستطع •

لقد أعلن كامل عن رأيه في الموضوع وقال :

- من حسن حظك انها تزوجت •

وصرخ فيه كاللدينغ :

- اسكت انت •

لكنه لم يأبه لصراخه ويواصل بنفس هدوئه الواصل :

- الزواج سيكون حجر عثرة بالنسبة لك • يجب ان تفكر

بأتمام دراستك اولا •

ويتسهم بسخرية مما سمعه ، ثم يهز يده قائلا :

- وكيف ؟ من فقرنا ؟ من جوعنا ؟

- كل شيء مؤقت •

ويرفع سبابته ويحركها أمام وجه أخيه وهو يردد :

- ادرس انت واتركني أنا •

- ولماذا أنا فقط ؟

- لانني بأصرف عليك ، راتب ابيك لا يكفينا •

أطلق عباس جوابه ، بينما بدأت فورته تهمد ، وهو يواجه
بطيبة اخيه وصدقه فيما يقوله .

وقال كامل :

- سأترك المدرسة أنا .

- لا ، انا الذي هيتركها ، دعني أتم هذه السنة فقط ، حتى
اعين بوظيفة جيدة .

ويربت كامل انذاك على كف أخيه ، ثم يضمه الى صدره
ويهمس له :

- انت شجاع يا عباس ، ويجب ان لا يهدك زواج أول فتاة
أحببتها ، اتبه الى نفسك ، ولا تلتفت الى الوراء ، افهمت ؟
ويلين أمام اخيه الودود ، يطأطئه رأسه ثم ينتحب بمرارة ،
وبعد ان ارتوى من دموعه قال بيأس :

- أحبها يا كامل ، احبها .

ويواصل كامل مواساته :

- اعرف ذلك . لكن هنا الحب ولد في غير أوانه ، عزيز
كان يحب ايضا ، وحدث له مثل ما حدث لك بالضبط ، عندما
ذهبت الى بغداد اسر لي بذلك ، ثم أتدري ماذا كان رأيه بالحكاية
بعد مرور سنوات عليها ؟ كان رأيه انه لو تزوجها في وقتها لم يكن

الآن أكثر من مستخدم في إحدى الدوائر محمل بالديون والأطفال،
هذا ما أخبرني به ، ولك ان تسأله عن صحته عندما يأتي في العطلة .
ثم هب بخفة نحو كوز الماء ، ملاً الطاسة وجاء بها الى اخيه ،
قر بها من فمه وقال :

— جذا واشرب ، ليتود قلبك وانس كل شيء .

* * *

أطبق كتابه ثم نهض وهو يعلن :

— كان كابل محققاً .

٨

بدأ زوج نهلة عمله الجديد • وعادت الحياة الى دكان ياسين المهجور ، والذي كانت واجهته قد تحولت الى مكان لرمي القمامة وتبول العابرين في الليل •

وطلي بابہ بلون احمر ناصع ، كما استبدلت رفوفه الداخلة، وبلطت ارضه بالطابوق ، وقد جاء هذا باقتراح من هادي الذي قام بازاحة القمامة عن الباب ، كما قام بتنظيفه وهو يردد بقرف :
- الله يلعنك يا ياسين ، هل هو دكان وباب للرزق ؟ أم
مرحاض ؟ تف •

ويقسم لحميد الذي مر لتهته :

- والله يا أبا عباس ، رائحته تظفر الرأس ، تصور ذهبت الى
المستشفى ، وطلبت مقمات • لكن الرائحة مسكرة فيه ، ولا ترضى
أن تبرحه •

- لقد ولي هو ووساخته ، والبركة فيك انت وابن اخيك •
وتأني الفرحة الى قلب هادي من هذا الاطراء فيهتف :
- والله لأضمنّ فيه كل شيء ، الصابون والشاي والسكر والرز
والطحين ، حتى الحناء والحلوى والقماش •
ويؤكد له حميد :

- المحلة كبرت ، وليس فيها دكان واحد ، وسيوفكم الله كلما
تعاملتم مع الناس بطيبة •

بعد ان كان عباس ينتظر مرور نهلة بلهفة بحثا عن نسمة من
وجهها الجميل اخذ يبتعد عن طريقها ، وعندما يجتمعها الزقاق يطأطأ
رأسه ويحث خطاه هاربا •

لقد بدأت تلف رأسها بفوطة ، وتضع الباعة الصوفية السوداء على
جسمها •

- ماذا أريدها ان تكون ؟ مديرة مدرسة ؟ الأفضل ان تخدم
زوجها وتعاونه في دكانه • وغدا عندما يصبح عندها أطفال من لهم ؟

هكذا ردد هادي عندما قالت له غالية ماتبية :

- حرام عليك تبعدها عن مدرستها •

ولم تستطع غالبية اقناعه ، حتى الزوج أعلن :
- الدنيا غير أمينة ، لا أريدها ان تذهب الى المدرسة ، وأبناء هذه
الايام لا يتركون بنتا تمر الا وتحرشوا بها •
ولكنه رضي ان تجلس بدلا منه في الدكان احيانا ، وعندما يذهب
للسوق ليشتري بديلا عن الحاجيات النافذة •
كما انها تحمل له كل ظهيرة صينية الفداء من البيت ، وبعد ان
ينتهي من تناول طعامه تعود بها ، ثم يرجع مرة اخرى حاملة قفصة
فيها عدة الشاي •

* * *

وذات يوم التقياً ، كان عباس يهيم بشراء علبة سيكائر ، وعندما
مد رأسه ناظرا طالته نهلة فجفل • ثم استدار بسرعة محاولا الابتعاد ،
فجاءه صوتها وهي تناديه :

- عباس ، عباس •

وعندما التفت اليها سأله مستغربة :

- مالك ؟

واقرب منها بدون ان يتفوه بكلمة • ثم ظل واقفا بباب الدكان
وقد وقفت هي الاخرى حائرة امام تصرفه • ولكنها تماسكت وسأته
بتاب :

- لماذا تهرب مني ؟

وتلغتم أمام تساؤلها الطيب ، فألحت عليه :

- لماذا لا تتكلم ؟

- أردت ان اشترى سيكائر •

- من أي نوع ؟

- أي نوع •

وضحكت وهي تسأله :

- منذ متى تعلمت التدخين ؟

واستعاد عباس هدوءه تدريجيا ، وقال :

- منذ زمن •

- ولماذا ؟

- هل تحقّقين معي ؟

- لا ، مجرد سؤال ؟

واجاب بانفعال :

- اشياء كثيرة تدعوني لذلك •

وضحكت • وعندما نظر الى وجهها وجد عينها قد ازدادت سوادا

بعد ان مررت عليهما الكحل ، كما وجد شفتيها قد اكتسبت لونا أحمر

ذا دكّة عميقة ، جعلهما تبدوان شهيتين وطريتين •

تساءلت من جديد :

- وماهي هذه الاشياء؟

- أرجوك ، كفي عن هذا المزاح .

واحست بالخرج من حدة كلامه ، وقالت :

- لدينا سيكائز لو كس فقط؟

- حسنا ، مات علبة .

وامتلت لما أرادته ، والتقطت واحدة من الرف وسلمتها له ، وهي

تقول ولهجة العتاب ما زالت في صوتها :

- لقد تبذلت ؟

وقهقه عايس وهو ينقدها ثمن العلبة ، ثم كبرت قهقهته وهو

يستدير مبتعدا . وتركها مفروسة وسط حيرة سرعان ما تحولت

الى قنوط أبكم فرش ظلالة على مجياها الجميل .

وجلست في قاع الدكان ، وارادت ان تبكي ، اشتتت ذلك

بحرارة ، لكن مجيء امرأة وطفلها الصارخ يركض وراءها منمها من

ذلك قالت المرأة :

- خالة نهلة أريد بـ «عانه» «حامض حلو» .

ووضعت قطعة النقود في كفة الميزان الفارغة ، ثم التفتت الى

ابنها صارخة .

- يوم الاسود .

وصفته على وجهه ، فازداد صراخ الطفل ، وفر الذباب الجاثم
على وجهه ، فقالت نهلة محاولة تهدئتها :

- اذكري الله ، انه طفل لا يفهم .

- نفل ابن نفل ، بكأؤها لا ينتقطع لأتفه الأسباب . .

ووضعت نهلة ال « حامض حلو » يدها ، وانصرفت المرأة
ملاحقة ابنها :

- تعال وكل هذا السم .



دلفت نهلة الى غرفتها ، كانت غرفة جميلة ، لعلها أجمل غرفة
في الزقاق كله ، مبنية من الطابوق ، ومطلية بـ « الجص » الابيض ،
وارضها مبلطة بالطابوق ايضا . وفيها سرير عريض ، له ناموسية وردية
اللون ، وفراش ووسائد من القماش الناعم المحشو بالقطن .

كما وضعت فيها خزانة كبيرة ، ذات بايين ، كل باب منهما فيه
مرآة تمتد على طوله ، وقد طلي خشب هذه الخزانة بألوان متعددة .

أما على الجدران فهناك صورة لزوجها عندما كان جنديا ، لها
اطار من الخشب الاصفر ، وهناك ايضا قطعة كتب عليها (من راقب
الناس مات هنا) . وهي نموذج من القلع المشاعة في المدينة ، والتي
تباع في سوق الصفاة .

هذه الفرقة هي كل عالمها اليوم • في يوم مضى كانت لها أحلام
أخرى • في الدراسة والتخرج والوظيفة وعباس ، لكن كل شيء قد
ضاع •

طأطأت رأسها ثم فجرت حزنها الكظيم ، وابت أمها مهرولة على
صوت بكائها •

- ما بك ؟

وتمتت :

- رأسي مصدوع •

وهجمت فرحة ناعمة الى صدر الام ، فرددت بانتشاء :

- ليس لدي القوة ، والا زغرديت •

ففاجأ نهلة ما سمعته من أمها ، وسألها باستغراب :

- تزغردين ؟

وهزت رأسها مؤكدة :

- نعم ، انت عروس جديدة ، ولا تعرفين معنى ان يهيبك

الصداع •

تردد في المدينة خبر الزيارة القريبة التي سيقوم بها الملك
والوصي إليها •
عرف الناس ذلك من خلال الاطواق المدينة التي بدأ التجارون
وعمال البلدية بنصبها في كل الشوارع والساحات المهمة •
ووزعت الإعلام العراقية وصور الملك والوصي بكميات كبيرة
في الشوارع وواجهات الدوائر الرسمية والاسواق •

أما المدارس فقد بدأت بأعداد الكشافة والطلبة الآخرين ليكونوا ضمن المسيرة المرحبة بدءاً من محطة القطار وانتهاء بمبنى المتصرفية ، كما بدأ الخطاطون بكتابة الألفاظ الكبيرة من القماش الملون وكلها تحمل عبارات الترحيب بالملك والوصي .

* * *

سأل الشيخ علي أحد أصدقائه :

– ما الذي يفعلانه هنا ؟

ورد عليه الصديق بصوت واطيء :

– وصاية عبدالأله على وشك ان تنتهي ، وسيتوج الملك قريبا لذلك بدأ يقوم بهذه الرحلات من أجل التعرف على أحوال الشعب كما يقولون .

فانفجر الشيخ علي ضاحكا . لكنه عاد فخفض من نبرات صوته وهو يسأل متهمكا :

– وماذا سيعرف عن هذا الشعب ؟

وشاركه الصديق ضحكه وسخريته فقال :

– يعرف هذه الأطواق واللافات الملونة .

ويعود فيضيف بعد آهة طويلة :

– ليته يدري كيف شيدت هذه الأطواق . كلها بأعمال السخرة وتمطيل الأعمال الرسمية ، وجوع العمال الفقراء ، ليته لا يأتي .
– انها فتنة جديدة .

- بالتأكيد ، لي قريب يعمل في الشرطة السرية ، اخبرني بأن لديهم أوامر باعتقال كل الذين لهم نشاطات سياسية ، او سبق ان أوقفوا من قبل لاسباب سياسية .

ورفع الشيخ علي رأسه مستفهما عما سمعه :

- وكيف ؟

- ربما قبل يومين من وصول الملك حتى لا يحدث اي شغب ، أو تخدش آذان الملك والوصي نداءات غير مستحبة .
وتأفف الشيخ علي وقال وكأنه يكلم نفسه :
- مسكين يامحسن ، لم يطلق سراحك الا قبل اسبوع !

* * *

وجه المتصرف امرا الى رؤساء العشائر في المناطق المحيطة بالمدينة لان يجمعوا اتباعهم ويحملوهم الى المدينة بسيارات البلدية قبل يوم من وصول الملك حتى يكونوا من ضمن المرشحين به ، وقد تهيأ شيوخ العشائر لهذا العمل ، فأغلبهم نواب واعيان أو طاممون بذلك على الرغم من ان قسما كبيرا منهم لا يعرف حتى كتابة اسمه .

وفي الموعد المقرر بدأ زحف العشائر على المدينة ، وامتلات بهم الخانات والفنادق الرخيصة ، ونام قسم منهم عند اقربائهم أو في الحدائق والساحات متدثرين بعباءاتهم الصوفية لمقاومة برودة الليل .

في هذا الوقت نشط رجال الامن ، واعدوا قوائم بأسماء
« المشاغبين » ، وبدأوا يطرقون ابواب البيوت بعد منتصف الليل
ليأخذوا من كان اسمه في هذه القوائم •

* * *

في ساعة متأخرة من الليل دخلت سيارة جيب تكرر ماكتتها
القديمة وتوقفت أمام بيت حميد ، ونزل منها رجل نحيف وطويل ،
يرتدي دشدشة سمكة من قماش داكن اللون ومغطا مدياً أصفر ،
ويضع على رأسه عقلا ويشماغا ، وطرق الباب بقوة •
كان سكان الزقاق نائمين لكن كثرة الطرق جعلت خيرية تصحو
فتوقظ زوجها :

- أبا عزيز ، أبا عزيز •

وفتح الشيخ علي عينيه :

- خير ؟

- اسمع ، هناك من يطرق باب بيت حميد •

ويبسم الشيخ علي بعد ان سمع الصوت ، ثم يستل جسده من
فراشه ، ويمشي حافيا باتجاه الباب ، وبعد ان يفتحه تطالعه السيارة ،
والرجل الطارق ، ولم يشعر بالحاجة الى سؤاله عما يريد ، فلقد كانت
السيارة معروفة وكذلك هيئة الرجل ، وتطلع اليه برهة ثم رفع صوته
سائلا :

- خير ان شاء الله ؟
- هل هذا بيت حميد الحارس ؟
- نعم .
- ولماذا لا يستيقظ أهله ؟ هل هم موتى ؟
- حميد في الحراسة الان ، وليس في البيت غير ولديه وجدتهما .
- اريد ولده .
- ويفاجأ الشيخ بما سمعه ، ولكنه يعود للسؤال :
- ولده ؟
- لدينا أمر بالقاء القبض على ولده كامل .
- ويقرب الشيخ علي خطوات من الرجل وهو ينطق باستغراب :
- أنا عمه ، قل لي ماذا فعل ؟
- لم يفعل شيئاً ، ولكن للاحتياط فقط ، انسيبت ؟ جلالة الملك
والوصي سيصلان غدا الى الناصرية ؟
- بعد ذلك التفت الى الباب ورفضه بقوة فافتح على سعتة ، اضعل
مصباحه اليدوي وهم بالدخول . لكن الشيخ علي سأله بشيء من
الكتاب
- يهدوء ، لماذا تكسر الباب ؟

وصرخ فيه الرجل بصلافة :

- اسكت انت •

- حسناً ، ابق مكانك وسأتيك به •

وتوقف الرجل عندما سمع ما قاله الشيخ علي ، واطفاً مصباحه

اليدوي بعد ان خاطبه محذراً :

- اذا لم تأت به سأخذك مكانه ، افهمت ؟

* * *

وتجمع الناس على ارضفة الشوارع التي سيمر منها الموكب ،
وتعطلت الحياة في المدينة ، في الاسواق ، والمدارس ، والدوائر
الرسمية •

كان البعض قد جاء مرغماً ، بينما جاء البعض الاخر بدافع
الفضول ، حتى الالاء والامهات الذين اعتقل ابناؤهم في هذه المناسبة
جاؤوا ووقفوا مع الواقفين •

ومر الموكب ، الملك جالس في سيارة سوداء فخمة ، لم يعرف
احد ماركتها ، أو رأى مثلها من قبل : وهو يرفع يده بالتحية ،
ويلتفت تارة الى اليمين واخرى الى اليسار ، وقربه جلس الوصي
ليرد التحية هو الاخر بنفس الطريقة •

واخذت الزغاريد تنطلق من أفواه النساء ، ورميت الحلوى
والزهور بكميات كبيرة •

قالت امرأة :

- انه يتيم ، مات ابوه وهو طفل .

وبكت صاحبها من قولها ، وعادت تطلق من بين دموعها المنهمرة :

- الله يحفظه لأمه .

* * *

وتمتت شابة كانت تخفي نصف وجهها بعباءتها :

- انه جميل مثل القمر .

- لأنه لا يأكل الخبز والبصل او التمر مثلنا .

- وماذا يأكل اذن ؟

- لا أدري . لو أكل من طعامنا مات بعد يومين ، انظري ان

وجهه يضيء من العافية .

وصفعتها الاخت على خدها مداعبة :

- سيصاب بينك . كفاه الله شرها .

وتلكزها بكوعها :

- هيا زغردي .

* * *

تساءل بائع كحك أركن صينته على مبعدة ، ومد رأسه من بين

الصفوف متطلما :

- والوصي اين سيذهب؟

والتفت اليه وجه مستنكر معباً بالفضب ونهره :

- أسكت انت •

وامتد رأس اخر ليهمس صاحبه في اذن بائع الكعك :

- انه خال الملك ، فهل انت خائف على مصيره ؟

* * *

وتناقلت الالسن عشرات التعليقات الاخرى •

* * *

ونحرت الذبائح بلا حساب ، واستحوذ الفقراء على قسم منها •
وقد تساءل المتسول الاعمى الذي يربط عند باب جامع الشيخ حسن :
- أين كان التجار قبل هذا ؟ لماذا لا ينحرون الذبائح دوما ؟
آه ، سأظل احلم بهذه الاكلة طيلة سنوات • اتمنى ان يزورنا الملك
دوما !!

* * *

ولكن عندما بدأ الملك رحلته على امتداد الطريق المؤدي الى
الشرطة اخذت تردد بعض • الهوسات ، التي لم يستطع احد كبجها ،
لا رؤساء العشائر ، ولا رجال الشرطة ، وكانت كلها موجهة الى
الوصي بصورة خاصة • لقد هبت الافواه لتقول :

- (وين تعن ياغراب الشجرة اشالت عنك ؟)

وكانت هذه الصرخة تعني ، ايها الوصي ، ياغراب ، أين تلتجئ . بعد ؟ فشجرة الوصاية التي كانت تظلك قد راحت ، وجاء الملك الذي كنت تحكم باسمه لانه صغير وقاصر ليتولى الحكم بنفسه .
كما ترددت هوسات اخرى . حفظ سكان المدينة كلماتها ، وظلوا يتناقلونها فيما بينهم .
وابتلع رجال السلطة وعبدالآله نصل الهتاف .

* * *

وعند زيارته الى سوق الشيوخ خافوا أن يتكرر ما حدث في طريق الشرطة ، فجاؤوا بسفن بخارية صغيرة لتقله الى هناك لكن أبناء المشائر زحفوا الى الشاطيء ، وعلا صوت الاحتجاج الذي اطلقته الافواه بتحد .

خرج كامل من المعتقل بعد انتهاء زيارة الملك ، كان مغتما الى حد كبير ، وعلى امتداد الايام الاربعة التي امضاها في الاعتقال لم تغمض عيناه ولو دقيقة واحدة ، حيث حشر في غرفة صغيرة لا تتعدى مساحتها بضعة امتار مع ثلاثة وعشرين شابا . وكان لا يصدق ان الحقن من الممكن ان يصل لهذا الحد .

وقد زارهم معاون الأمن بعد يومين ليقول لهم :

- انها أوامرنا وعلينا ان ننفذها .

وهزوا اكتافهم بلا مبالاة مما قاله ، فانسحب دون ان يقوى على مواصلة الدفاع عن كذبة يعرف في قرارته بطلانها .

نادى على المفوض وقال له :

- لو ترك الامر لي لتصرفت بصورة اخرى ،

- وكيف ؟

- كتابة تعهدات على المشتبه فيهم بعدم الحضور الى أماكن الاحتفال ، وان وجدنا مخالفا نرميه في السجن ، لكن المتصرف أراد احتياطات اكثر .

وهز المفوض يده وهو يقول :

- وهل يخيفنا هؤلاء ياسيدي ؟

- أبدا ، ولكن يجب ان تصرف بتعقل في مثل هذه المواقف حتى لا نخلق بلبلة في المدينة ، انني اكبر منك سنا ، وقد انفقست في هذه الخدمة عدة سنوات ، في العمارة وكر كوك والرمادي والموصل .
- هؤلاء مثل الوباء وعلينا ان نقطع دابرهم ، ولن نتوانى عن اية وسيلة تقودنا الى ذلك .

امسح المعاون جبينه بأطراف اصابعه وواصل القول :

- ليس هذا مناسبا دائما ، هذه المرة مثلا اخطأنا كثيرا ، واخذنا الاخضر واليابس ، تصور انني رأيت بينهم كامل حميد أليس كذلك؟ لماذا جئتم به ؟ انه ابرز لاعب كرة سلة في المدينة ألا تراعون مثل هذه الامور ؟ الناس يحبونه ويفتخرون به فلماذا تدمونهم باعتقاله ؟

واطرق المفوض مفكرا ، ثم قال بعد ثوان :
- الأوامر ياسيدي وهي واضحة ، يجب اعتقال كل من سبق
له وان اعتقل بتهمة سياسية ، وكامل حميد سبق له ذلك .

* * *

استقبلته زكية وضمته الى صدرها العجوز :
- كامل يا نور عيني ، الله ينتقم منهم .
واخذت تحسن جسمه ، وتطلع الى وجهه وهي تساءل :
- قل لي ، هل ضربوك ؟ هل فعلوا بك شيئا ؟
ومسد كامل يده على جبينها المتفرض وهو يردد مؤكدا :
- والله يا جدتي لم يضربني أحد .
- اذن ما لك مصفرا هكذا ؟
وواصل تمسيد جبينها وهو يقول :
- لم اكن اتزره في حديقة ، بل كنت في سجن يا جدتي ، غرفة
بقدر غرفتنا هذه وليست فيها نافذة واحدة ماعدا كوة صغيرة قريبة
من السقف .

وانفجرت زكية باكية ، وحاول ان يهدئها :
- ارجوك يا جدتي ، أرجوك .
ولكنها مضت في نحيبها :
- اين انت يا عسنة ؟ لماذا لا تخرجين من قبرك وتأتين ؟

وترققق الدمع في عيني كامل ، وداهيمته الذكرى الكظيمة ،
وتوسل اليها :

- جدتي انني متألم فلا تزيدي من ألمي ، قولني أين والدي
وعباس؟

ومسحت انفها بطرف فوطتها واخبرته :

- والدك خرج الى السوق ، وعباس ما زال في المدرسة •

وعادت فأكملت :

- والدك مثل المجنون ، فقد صوابه منذ ان اخذوك •

- تصوري يا جدتي لم يسمحوا لاحد بمواجهتنا؟

- الله ينتقم منهم •

وأطرق كامل قليلا ثم ردد بأسى :

- لقد كان ماحدث غير متوقع ابدا ، اذا يريدون من الناس !

- لم اخرج لأُصفق للمكهم ، قلت : جرام علي لبن أمي ان فعلت

ذلك وكامل في السجن •

ويقبلها على جبينها :

- الله يبيك لنا يا جدتي !

* * *

ودخلت عمته تتبعها كوثر ، وعندما رأته اطلقت زغرودة عالية ، ثم ضمته الى صدرها وقبلته وهي تتم بلهفة:

- ما ما كامل نور عيني .

وتقدمت كوثر ايضا وصافحته ثم وقفت جوار امها وعيناها لاتفارقانه وكأنها تراه لأول مرة .

قالت خيرية :

- لو كان عزيز هنا لآخذوه منك ، كل يوم يسيون مشكلة في بيت ، ماذا يريدون منا ؟

وعلق كامل بصوت واثق على ما قالته :

- المسألة أكبر من هذا يا عمتي ، أكبر بكثير .

واتسعت عينا كوثر وهما تأملانه باتباه اعمق ، فأضاف وهو ينظر اليها :

- انهم يريدون منا اشياء كثيرة ويجب ان نواجههم بما نريده نحن وما نسعى اليه ، اتنا في معركة معهم وعلينا ان نخوضها الى النهاية ، هذا ما توصلت اليه في هذه الايام الاربعة التي امضيتها في سجنهم .

ثم ابتسم في وجه كوثر وسألها :

- الست معي ؟

وترددت قليلا ثم اجابت بصوت ذي اختلاجة ناعمة :

- لقد قلت الحق ؟

وابتلمت ريقها لتطرد ما تبقى في صوتها من تردد وتضيف :
- كثيرا ما كان عزيز يقول لي ان بيتنا وبينهم ثأراً •
- ليس ثأر واحد ، بل ثارات •

* * *

ثم استأذن بالخروج وهو يخاطب زكية :
- سألحق بأبي في السوق •
وقالت عمته :
- ربما تجده عند عمك •

* * *

وخطا خارجا من الغرفة ، ثم من البيت ، وبعده من الزقاق ،
حتى ارتقى في الشارع المريض •
كان الاصرار قد صحا في قلبه ، وأورق كثيراً ومتفائلاً في هذا
الحقل الواسع العامر بالحق والتحدي والكبرياء •
وتذكر آيات من الشعر حفظها لكثرة مارددها أحد المعتقلين
معه طيلة الايام الاربعة ، فملأته معانيها بنبطة غامرة لم يعرفها قلبه
من قبل • وظل يمشي •

(بغداد في ٤/٥/١٩٧٦)

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة



القمر والأسوار

بعيداً عن الحذقة والتحكيك والصنعة يكتب الربيعي قصصه ورواياته بلغة سهلة طرية تنأى سلفاري عن سبيل الاستعانة والتشبث بالمنصبات مهما تواضعت قدرات القارئ اللغوية. تلك خصيصة يمتاز الربيعي بها عن سواه من كتاب القصة.

والتقاط الحدث من شوارع الحياة يكشف عن خصيصة ثانية لهذا الكاتب المبدع. فيقدراته وبامتلاكه أمام كتابة القصة أو الرواية يفرز من الحدث ذلك الخيط الدرامي الذي يؤلف بين

والتقاط الحدث من شوارع الحياة يكشف عن خصيصة ثانية لهذا الكاتب المبدع. فيقدراته وبامتلاكه أمام كتابة القصة أو الرواية يفرز من الحدث ذلك الخيط الدرامي الذي يؤلف بين

والتقاط الحدث من شوارع الحياة يكشف عن خصيصة ثانية لهذا الكاتب المبدع. فيقدراته وبامتلاكه أمام كتابة القصة أو الرواية يفرز من الحدث ذلك الخيط الدرامي الذي يؤلف بين